ماما حسناء

د/ ظافرة القحطاني

دار الرائدية للنشر والتوزيع

ح دار الرائدية للنشر والتوزيع ، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القحطاني ، ظافرة حمود
ماما حسناء / ظافرة حمود القحطاني ـ
الخفجي ١٤٤٣هـ
ص ؛ ١٤ × ٢١ سم
ردمك ٨-٧٢-٨٣٢٥-٦٠٣-٩٧٨
١ ـ القصص القصيرة العربية ـ السعودية
ديوي ٠١٩٥٣١ / ٨١٣ ١٦٤ / ١٤٤٣

رقم الايداع: ١٦٤ / ١٤٤٣
ردمك ٨-٧٢-٨٣٢٥-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

دار الرائدية للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الخفجي
ت :٠١٣٧٦٧٥٢٧٢
واتساب : ٠٥٥٠٧٦٧٠٠٠
تويتر والانستغرام: daralraidiah
إيميل : alraidiah@hotmail.com
www.daralraidiah.com

ماما حسناء

د/ ظافرة القحطاني

دار الرائدية للنشر والتوزيع

المقدمة

ابنتي الحبيبة
وصلتني روايتك الجميلة المبدعة وقرأتها كاملة
رواية اجتماعية انسانية هامة
ورواية ذات صيغة تاريخية مرحلية
لمرحلة من أهم مراحل البشرية
الرق وعذاب الرق وذُل الرق
ليس وجعاً محلياً لكنه كان وجعاً عالمياً
هي ليست رواية تسجيلية وإنما رواية ابداعية
أما فيصل فقد كان بحق من عناصر التشويق في الرواية
رحم الله هذا الملك الطيب ووالده
المؤسس وكل ملوك السعودية الراحلين

الأديب جمال بركات

يموت زوجي فجأةً في يوم عيدٍ وتموتُ معه حياتي جميعها، لم أعد أتنفس، لم أعد أرى، توقفت عن أن أحيا.. وأضيعُ في ضبابات الحيِّ النابضة ..

أعيشُ منولوجًا داخليًا تعزفهُ الدماء.. أصبح قلبي ممزقًا من منتصفه..

تمدّد الحزن والألم في جوفي وأصبحتُ شجرةً ميتةً.. وينتزعنـــي آخرون مـــن أرضِ الضياع والهامشـــية والقسوة.. من الموت داخل ذاكرتي..

جعلوني أعمل في مركز..

وفي المركز أجد راحةً من نوعٍ غريب ..

راحةُ تقديم السعادة لكلِّ مَن فَقدها.

بعد أن فقدتُ سعادتي ..

خرجتُ للناس، أرى الأشـــياءَ أمامي تحدث.. أشخاصٌ حقيقيون، وقصصٌ حقيقية وأبطالٌ يعيشونها أمامي ومعي.. يتحدثون، يعيشون .. يبكون .. يضحكون..

ويســـتمرُ الســـؤالُ.. متى تنتهي هذه القصص وتبدأ قصص السعادة؟

أحدهم ينقصه الحبُّ، آخر ينقصه الأمل، ثالثٌ ينقصه المال؛ وهناك مَن ينقصه الأبناء..

وفي رمضان من عام ألف وأربعمائة واثنين وثلاثين للهجرة، أخذ العمل طابع العطاء..

كنا نأتي مساء كل يومٍ إلى المركز لتوزيع موادٍ غذائية وبعض المال ..

١

ويتقاطر النـــاسُ إلينا ويدخلون من الباب الأســـود الكبير..

ذات مساءٍ تدخل ثلاثُ سيداتٍ يحملن سيدةً عجوزًا جدًا.. وُضعت على غطاء (بطّانية) تحملها السيدات من الأطراف..

يفرشن على الأرض مفرشًا بلاستيكيًا سميكًا أصفر اللون، ويضعن عليه تلك السيدة السمراء النحيلةِ ذات الجسد الهيكلي المشلول..

جلســـتُ أنا على الأرض إلى جوارها.. وابتسمت هي بكلِّ وجهها.. بسمة طفلٍ بلا أسنان..

سألتها:

- كيف أنتِ يا أمي؟

ابتسمت وهي تقول:

- أنا طيبةٌ والحمدلله يا ابنتي ..

وعرفت من السيدات الثلاثة أنّها أمهُنّ، وأنها أصيبت بجلطةٍ بعد وفاة ابنها الوحيد أدت إلى شللٍ في أطرافها الأربعة، وأنّ اسمها (حسناء)..

هنّ أيضًا لا يملكن المال ولا يملكن ثمن الكرسي المدولب ليضعنها عليه، وفي ذلك المساء تمت تسوية

ثمن الكرسي المدولب وكذلك مستلزمات السيدة العجوز من مفارشَ واقيةٍ من البلل، كريماتٍ وشامبوات؛ ولكن في مساء اليوم الثالث والعشرين، وبعد مضيِّ أربعة أيامٍ على حضور هؤلاء السيدات وإحضارهن السيدة المشلولة -والدتهن- تتصل على هاتفي إحدى بناتها، قالت:

- إن أردتِ العجوز فهي بجوار المسجد الكبير في حي الجرادية!.

وعرفت المكان، كنت أرتجف.. مختنقة.. شعرتُ برعب، بخوفٍ.. ماذا أفعل؟!.

أدور في أرجاء منزلي وكأنّ أمامي هوةٌ سحيقة أسقط في داخلها،

اتصلت على هاتف أختي لتذهب معي إلى المكان..

٢

بجوار مُدخل النســـاء في المســـجد وجدتها، كانت تجلس خارجًا وقد مالت على أحد جنبيها ولم تستطع أن تعدِّل من جلستها، كانت تجلس على سجادةٍ حمراء مهترئة، جلستُ أنا إلى جوارها..

سألتني: مَن أنت؟ ..

قلت لها: يمه (أمي)، أنا بنت من بناتك أتيتُ لأخذك معي إلى منزلي.

قالت: ليه؟ بناتي بيجون يأخذوني.

وتتلفت بعينيها المنهكتين وتردد بألم:

- تأخروا بناتي، أخافُ أن يأتوا لأخذي ولا يجدونني..

وهوى قلبي وسقط.. وارتجفتُ.. ماذا أقول؟ ..

قالت أختي:

سيلحقون بنا فيما بعد..هنّ مشغولات..

بان الرعب على وجهها.. وبكت، قلت لها:

- سأتصل بهن وسيأتين..لا تخافي .

ونزلت دموعٌ غزيرة من عيني ماما (حسناء)، دموع تسيل.. دموع لا تتوقف.. كانت تقول:

- وين تودوني؟ بناتي ..بيجون

فاجأني رفضها المستســلم، وعرفـــت أنها اعتادت أن تقول نعم ..

ترفض بطريقةٍ مَن يعلم أنه لا يملك القرار، شعرت أنّ هناك يدًا ضخمة تعتصر قلبي..

وضعت يدي من خلف كتفيها لأحركها، ملابسها مبللةٌ فقد جلست فترةً طويلة، كان هناك الكثير من النمل الكبير الذي يدور حولها..

عندها وضعت أنا رأسها في حضن أختي التي جلست بجوارها كي أبعد النمل من حولها ومن التصاقه بجسمها من الأسفل.

وجدت الكثير من النمل الأسود الكبير الذي تجمّع تحتها وبين رجليها وركبتيها من الداخل.

٣

أخذت المناديل من السيارة وقليلًا من الماء من البرادة بجوار المسجد، وحاولت إبعاد ما استطعت من النمل، كانت تتألم بصمت..

وأجلسناها في المقعد الأمامي بجوار السائق الباكستاني الذي وضع شاله على مقعد السيارة حتى لا تبلل السيدة العجوز مرتبة السيارة؛ فقد جلست فترةً طويلة.. كانت مستمرةً في البكاء.. بكاءٌ صامت.. خجول.. بكاءٌ يرتعش، كانت خائفةً لا تدري ما يُراد بها.. حرارتها مرتفعةٌ جدًا، وعيناها حمراوان..

وفحصتها ورأيت أنّ ضربات قلبها تتسارع وتنفسها يصبح ثقيلًا جدًا.

ذهبت بها إلى مستوصف العارض القريب من حيِّ الجرادية، فحصها الطبيب المناوب.. كان يحركُ رأسه يمنةً ويسرة ويردد:

- ماهذا؟ ماهذا؟ النمل يملأ جسدها!..

استعمل الطبيب ثلاث عبواتٍ من الأكياس الممتلئة بالمحاليل في محاولةٍ لتنظيف جسدها.. كان يردد:

- النمل يؤذي التقرحات الموجودة في جسمها.. كيف أُهملت؟!

ثم نصحني أن أذهب بها فورًا إلى مستشفى الملك سلمان، ذهبنا إلى مستشفى الملك سلمان، كنت أبكي طوال الوقت ..

لن أنسى ذلك المساء ماحييت، ولن أنسى مافعله أطباء وممرضات مستشفى الملك سلمان، وتعاونهم معي لرعاية مامتي (حسناء)

صدمتهم الحكاية..

٤

قرر الطبيب في المستشفى استبقاءها في قسم الملاحظة لأنّ حرارتها كانت مرتفعة جدًا.. كما أنّ تقرحاتها الفرشية كانت مريعةً، داميةً وملتهبة، في الظَهر وفي أماكنَ مختلفةٍ من جسمها الذي أصبح يميل إلى لون الرماد..

ذهبت أختي وبقيت أنا معها في المستشفى، ولمدة ثمانٍ وأربعين ساعة في قسم الملاحظة، كانت تبكي بحزنٍ.. بخوفٍ، برعبٍ وألم..

ورغم ذلك عندما أنظر إلى وجهها كانت تبتسم لي كطفلٍ يغرق وجهه بالدموع..

ابتسامةٌ جميلةٌ بلا أسنان.. ابتسامة طفلٍ يبكي ..

وتحسنت حالها قليلًا في المستشفى، وبان الرضا في وجهها عندما أتت بناتي بعد صلاة التراويح وأحضرن معهنّ القهوة والتمر..

كانت تنظر مشدوهةً بدهشةٍ وتساؤل.. مَن هؤلاء؟!

في المستشفى تمت معالجة الجروح مبدئيًا، أيضًا تم توفير الأدوية اللازمة، على أن يكون التغييرُعلى الجروح في مستوصف البراك القريب من مكان عملي.. ذهبتُ بها إلى منزلي.. ووجدتُ بناتي قد قمن

بشراء السرير والمفارش الواقية من البللِ والكرسي المدولـــب من شـــارع الضباب، وكـــنّ فرحاتٍ وهن يحملنها معي وهي لا زالت تسحُّ الدمع بشكلٍ أليم..

أخذتها مع الخادمة إلى دورة المياه وقمنا بتنظيفها ووضعناها على سريرها، لم تنم ليلتها بل كانت تبكي وتتحدث بصوتٍ عالٍ ..

خفت وأخذتُ كتابًا لأقرأه ونمت إلى جوارها على سريرها..

كانت مذهولةً خائفة مرتبكة، تغسل الدموع وجهها بلا توقف...

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مستوصف البراك القريب من مكان عملي

٥

وتحدثت إلى المدير، الدكتور (رضا)، من الجنسية المصرية.. وشرحتُ له الحالة ورغبتي في أن تأتي الطبيبة لزيارتها كل يومين، ووافق.

وكلف الدكتورة (زينب)، مصرية الجنسية، والدكتور (أسامة فتحي)، بالكشف عليها دوريًا ومتابعة حالتها.

كانت بحاجةٍ إلى الإرواء؛ فقد كانت تتعرضُ للعطش وللجوع كثيرًا..

ولقد كان اهتمامهم بها شديدًا جدًا، ولكنها طوال الوقت لا تفتأ تسأل عن بناتها، وأنا أقول:

- سيأتين يا ماما.. سيأتين

وفي اليوم الثامن والعشرين من رمضان، وكنت أطفئ إضاءة المنزل فجرًا.. اقتربتُ منها لأغيّر لها ملابسها وأقبِّلها قبل أن تنام، رأيتُ وجهها يغرق بالدموع، وعندما لمست يدها بكت بصوتٍ عالٍ كطفل، ولم تتوقف عن البكاء..

حتى عندما أدخلتها لدورة المياه لا زالت تبكي، قبّلتها ووضعتها بمساعدة الخادمة في فراشها ولازالت تبكي ... جلست بجوارها على سريرها، وأخذت كتابًا وبدأت

أقرأ كعادتي إلى أن نامت كطفلٍ أنهكه البكاء... وعندما استفاقت ظهرًا سألتني:

- يا ابنتي، هل بناتي بخير أو لا أعلميني؟ أين هنّ؟

لا أعلم لماذا انتابتني أنا نوبةُ بكاءٍ مريرة.. لدرجة أنها كانت تنظر إلى وجهي وتقول:

-لمَ تبكين؟ بناتي فيهن شيء؟!.

قلت بصوتٍ باكٍ: إنهن بخير ولسوف يأتين لرؤيتك ولكنهنّ مشغولاتٌ!..

٦

هنا قالت لي بألم:

-نعم، مشغولات.. يا ابنتي لقد تعذبت كثيرًا في حياتي منذ خلقني الله، واللي أنا فيه الآن والله عذابٌ وأعظم عذاب، ولدي ومات أمامي ليتني مت معه.. يا ابنتي ليتني أموت الآن، دعوت ربي كثيرًا أن يأخذني منذ كنتُ طفلة، لكن ماكان لي الحظ في أن أموت وأرتاح..

قلت: يا ماما أنتِ أمي وجدة بناتي، ما هذا الكلام؟ وسعي صدرك يا ماما؟ هذا بيتك، أو أنتِ ما تحبيننا؟..

ابتسمت ووجهها لا زال غارقًا بالدموع .

قلت: أبدًا هذا بيتك وبيت بناتك إذا هنّ أردن المجيء ..

اطمأنت رغم أنها كانت تشكُ في صحة كلامي .. وربما تعرّضت للكثير من الوعود الكاذبة، وخيبات الأمل المتكررة لذلك لا تثق بأحد ..

كانت لا تصدقني، تعيش صدمةً.. دهشةً.. خوفًا ولكن باستسلام، ويأتي يوم عيد الفطر، وأشعر برعبٍ حقيقي، ترى ماذا سيقول والدي؟ كنت خائفةً من والدي ومن والدتي؛ بل حتى من أخواتي وأبنائهن،

ومن عمّاتي.. من الجميع، ترى ماذا ينتظرني؟..

وفي فجر يوم العيد كعادتنا في التجمع في بيت والدي الكبير، دخلنا من الباب المشرع لاستقبال الأبناء والأحفاد، رأيت والدي.. كان أنيقًا محتفلًا كعادته في كل عيد، كم كان والدي جميلًا!..

رحب بي ورحب بماما (حسناء) وقبّل رأسَها، ووجهه يصبح سؤالًا ضخمًا.. مَن هي؟..

جفّ حلقي ولم أتكلم..

٧

نظر إلـــيّ بغضبٍ وأولاني ظهـــره، وذهب إلى حيث يجتمع أفراد الأسرة

وأخذ يتحدث إلى الجميع ويقول:

- هذا يوم عيد، افرحوا بعيدكم.

ثم قام بتوزيع كسوة العيد علينا جميعنا..

اقترب من ماما وقال لها:

-هذي كسوتك واعذريني على القصور.

ومدّ لها يده بمئة ريالٍ، مثلنا جميعًا صغارًا وكبارًا، ابتسمت بقوةٍ وهي تحاول أن تقترب منه لتقبّل يده.. أخذني بعيدًا وسألني من هي، وبدأت أخبره بقصتها، وضع كلتا يديه على رأسه، ثم وقف وهو يصرخ وأخذ يهزني بقوة، كان يصرخ ويستغفر كعادته عندما يغضب، وكنت أنا أنظر إلى وجهه وأبتسم، وأخذ يدور في الغرفة وهو يردد:

- مجنونةٌ أنت، إنها قد تموت!.

وقام باستدعاء الدعم (نسائه)، وهو يقول:

- شوفوا بالله وين عقل هذه البنت؟ ستسبب لي بجلطة!

وتسرّب الخبر للجميع وأصبحت الوجوه تتساءل من

حولي.. ولكنني أخذت ماما وأجلستها في الصالة بجوار التلفزيون؛ كي لا تسمع ما يقولون، ذهلتُ عندما وجدت بناتي الثلاثة يتجمعن حولها ويجلسن إلى جوارها ويتحدثن معها؛ بل إنهن يقلن لأطفال أخواتي:

«هذه جدتنا»!..

شعرت بفرحةٍ فقد أحببنها، ولقد كانت حبيبة، وبدأ النقاش وأخبرتهم بالقصة وأحزنت القصة الجميع، وتحوّل اللوم إلى أختي الكبرى التي ذهبت معي.

٨

ولكن ظلّ السؤال.. ماذا لوحدث لها شيء؟
وأخبرتهنّ بأنني لن أعرضها لتجربة التخلي مرةً أخرى مهما كان السبب،
لن أعرِّضها إلى صدمةٍ أخرى جديدة، آلمني تعرُّضها للخوف والأسى
والعقوق، غياب بناتها عنها صدمةٌ عنيفة لن أكررها ما حييت..
أتت أخواتي الكبيرات والصغيرات، وجلسنا جميعنا معها في صالة المنزل الكبيرة، قمت أنا بإعطائها القهوةَ والتمر لأنها لا تستطيع تحريك يديها..
وتقول أمي:
- يا ابنتي والله إنها مجازفة، هي ضعيفةٌ جدًا ومشلولة، أخاف أن تموت، ويمكن وراها مشاكل، ووراهم شر، وما نعرفهم.
قلت: لن أتخلى عنها أبدًا؛ هي عجوزٌ مشلولةٌ مهانةٌ محطمة من الداخل،
ما الذي سيحدث؟ ما الذي من الممكن أن يتسبب به وجودها في منزلي؟ ..
وضعوا آلافَ الاحتمالاتِ؛ ولكن أمام إصراري وقولي

بشكل جازم:

- لن أعرضها لهذا الأمر مرتين، لا يمكن أن تتخيلوا كيف كانت حالتها وبكاؤها..

توقفوا عن اللوم.

قامت والدتي وعماتي بإعطاء (ماما) الكثير من الهدايا وقطع القماش والحنّاء، وفرحت كثيرًا، وأخذن يتحدثن معها حول كل شيء، إلا حول حياتها.. وابتهجَت هي كثيرًا، أثناء تناولنا طعام الغداء كنت أراقبهنّ وهن يتسابقن لإطعامها، كانت تبتسم طوال الوقت، كان يوم عيد..عيدٌ حقيقي جميلٌ ورائع..

٩

عدنا إلى منزلنا.. كانت سعيدةً مبتسمة، ونامت بهدوءٍ كطفل..

كنت أشعر أنها مغبونةٌ مقهورةٌ ومصدومة، ولكن قليلًا قليلًا هدأت نفسيتها؛

لقد وثقت أنها في أمان، والأهم أنها وثقت أنني سأكون إلى جوارها ولن أتخلى عنها ..

اعتادت بيتي، واعتادت بناتي، وأحبتهنّ وأحببنها جدًا، كانت تبتهج وهنّ يتحدثن إليها ويقلن لها:

«يا جدتي»..

كانت تجلس أمامها ابنتي الوسطى لترسمها، يتخلل جلستهن الكثير من

الضحك والمرح.. حيث إنّ (ماما) تطلع لسانها تارةً، وتفتح فمها تارةً أخري كي تشاكس ابنتي (سارة) الرسامة التي تصرخ:

- تكفين يا جدتي، لا تتحركي!

ولكنها تتحرك طوال الوقت كي يضحكن جميعًا، بينما ابنتي الصغرى تقف خلف الكرسي المدولب وتحركه وتصرخ بها الجدة:

- إنِّي أراكِ يا (تغريد)!

وتحاول الطفلة الاختباء وتصرخ الجدّة بهنّ:

- أحضروها لي أحضروها لي!

ويمسكنها أخواتها والخادمة ويقربونها من (ماما)، ولكنها تحاول أن تمد جسدها كي تقبِّل (تغريد) الطفلة المشاكسة، كانت تضحك بقوةٍ وكأنها قد نسيت يومًا ماهو الضحك من القلب، أوقاتٌ مرحةٌ وجميلة كن يقضينها مع بعضهن بعضًا..

يأخذنها إلى فناء المنزل ويتسابقن أمامها وهي تشجعهن، وتصرخ بالبنت الصغرى وهي تتزلج على (السكوتر):

- لا تسقطين ... لا تسقطين!

وتستمر في مراقبة الطفلة كي لا تقع، وعندما تسقط الطفلة فإن (ماما) تضحك وهي تقول:

- اسم الله عليكِ يا ابنتي

وأحيانًا كانت ابنتي تُسقط نفسها كي تضحك (ماما)، كنّ يتسابقن أمامها على الدراجات وهي تصرخ مشجعة..

١٠

وأنا أجلس إلى جوارها ونعطي الفائزة لوحًا من الشكولاتة، كانت تضحك كثيرًا وتشاكس البنت المهزومة، وعندما ألعب أنا معهنّ كان صراخها يزداد وهي تشجعني، في أوقاتٍ كثيرة كانت تقول لي:

- يا أمي.. أنتِ أمي بل أمنا جميعنا..

ابنتي (تغريد) تجلس معها فوق قدميها وتقول:

- أزعل يا جدة شجعيني أنا فقط..

وتبتسم ماما (حسناء) وهي تقول:

- إذا راحت ماما أشجعكِ أنتِ فقط، لكن لا نريد أن تغضب منا مامتنا.

وأحضرت أنا لها مرتبة (آن هاوس) كي تساعدها على عدم وجود تقرحاتٍ فرشية مستقبلًا؛ لأنها لا تستطيع تحريك جسدها، أيضًا كي تريحها؛ ولكن ابنتي الصغرى أصبحت تنام معها وهي تقول:

- أنام عند جدتي

ونحملها نحن بعدما تستغرق في النوم..

في الخامسة مساءً من كل يوم كنّا نتناول القهوة في فناء المنزل، وأحيانًا تأتي صديقات أختي الكبرى وصديقاتي ونتحدث ونمزح، وماما (حسناء) تنظر إلينا

إلينا وهي مبتهجةٌ وتضحك طوال الوقت، ونتناول العشاء جميعًا في جو من الحب، كنت أنا الأب خارج المنزل، تساعدني ابنتي الكبرى (منى)؛ فهي الموكلة بجميع احتياجات الجدة ..

كانت دائمة شراء الملابس للجدّة؛ الشراشفُ الصغيرة (تُوضع على الرأس للصلاة)، قبعاتٌ من الصوف .. حناءٌ من عند (بن منقاش)،

ولكن أنا الأم في داخل منزلي، وهكذا مضت الأيام جميلةً ورائعة ..

كنت أمنعها من تناول الكثير من الطعام فهي لا تتحرك وبالتالي فإن حركة الأمعاء بسيطة وهذا قد يعرضها إلى تلبُّكٍ معويٍ شديد ..

لن أنسى كيف كانت تنظر إليّ في دهشةٍ كل مرة .. ولكنني أضحك في وجهها وأخبرها أنه لمصلحة بطنها وأضع يدي على بطنها وأحركها حركةً دائرية وأنا أقول لها:

«أشعب أشعب .. يا بطنٌ أوسعُ من ملعب أشعب .. يا أشعب»!

تضحك ماما (حسناء) كثيرًا على أشعب ..

وتقول: زوجوني أشعب!

١١

وأعرف هنا أنني أخرجتها كثيرًا من تلك الأجواء التي عاشتها، وتردد هي بلا قناعة وهي تنظر إلى الطعام:

- العافية في أطراف الجوع

كنت بعد صلاة المغرب من كل يوم أعصر لها ثلاث حباتٍ من البرتقال كي تستمر أمعاؤها في العمل بشكلٍ جيد، سجلتها في خدمة الرعاية الصحية المنزلية في مستشفى (الملك سلمان).. كانت دومًا تدعو للطبيب الزائر ولي ولبناتي، ولـ (فيصل) في كل يوم.. أدهشني هذا الأمر لكنني لم أسألها، كل يومٍ وكل مساء؛ بل كافة الأوقات، وأتوقع أنه ربما كان ابنها، وأقول لها ذات يوم:

- (حسين) ياماما، حسين هو ابنك.

ولكنها لا ترد.. وكثيرًا ما أسألها ولا تجيب!

وازداد فضولي لمعرفة (فيصل) .. لكنها وكأنها لا تسمعني.

غيّرت من حياتنا وأصبح لدينا جدة حبيبة، كنا جميعنا سعداء بوجودها، ما أجملها من ماما.. وما أجمل أيامها معنا، وما أجمل أيامنا معها!.

وفي يوم الأربعاء الموافق ١٤٣٢/١٢/٤ هـ، كان لي موعدٌ في عيادة السكري، وتم الكشف عليّ وكنت أعاني من جرحٍ في إصبع قدمي اليسرى، وقال لي الطبيب إن الجرح بدأ يلتئم.. وحدثت ربكة بين الأطباء..

١٢

ويسألون:

- متى أخذتِ جرعة الأنسولين؟!

وأخبرتهم:

- إنني أخذت جرعتي هذا اليوم كعادتي..

لكنهم يفتحوا الملف ويغلقوه، خفت.. لا أعلم ما الذي يحدث؟!

قرر الطبيب بقائي في المستشفى وإجراء بعض التحاليل..

بكت بناتي خوفًا عليّ؛ فقد كنّ جميعهن معي، وكذلك ماما (حسناء)

التي لم تتوقف عن البكاء، خافت جدًا..

وتردد :

«لمن تخلينا يا ابنتي؟ الله يبطي بساعة الشر».

وأطمئنها أنني بخير، ولسوف أعود إلى المنزل قريبًا..

وفي اليوم التالي كنت أسأل:

- أين جرعة الأنسولين؟

ويقولون:

- لا داعي للأنسولين سنكتفي بالمنظم.. نحن لا نعلم حقيقة ما حدث!.

وتم احتجازي في المستشفى أربعة أيام، وإخضاعي للكثير من التحاليل،

وأتت بناتي لزياتي بصحبة ماما (حسناء) التي بكت وهي تردد:

- ليتني أنا.. ليتني أنا!

وتقبلها بناتي وهن يرددن:

- جدة، ماما طيبة.

وتبكي مامتي وهي تقول:

- وين نروح يا بنتي بعدك، والله بنضيع مالنا بعد ربي إلا أنتِ.

وأطمئنها أنني بخير، وبصحةٍ وسلامة ..

خرجت من المستشفى وكنت فعلًا بخير والحمد لله، لم أخبر بناتي ولا مامتي أنني آتية..

كنت أريدها مفاجأةً لهنّ جميعًا، وعندما دخلت من الباب صرخت مامتي، تريد أن تقول شيئًا.. لكنها بكت بصوتٍ عال..

وأسرعت إليها وقبلتها وهي تبكي..

١٣

كانت تبكي بصدقٍ.. بقوةٍ.. كم أحببتها ولا زلت أحبها!..
تتلاحق الأمور بسرعة تلك الأيام...
تحدثت مامتي ذات مساء، رغم أنني لم أسألها عن ماضيها أبدًا، قالت:
-ضِعت وأنا طفلةٌ صغيرة جدًا ولم أعرف والديّ.. كنت ألعب في مزرعةٍ وأمشي وشعرت بأنني ابتعدت.. فجأة أتى رجلان وأخذاني ووضعاني في خُرج (ما يوضع على ظهر البعير) وأركباني على البعير.. وعندما صرخت لطمني أحدهما على فمي بقوةٍ وصرخ بي.. سقط سِنّي الأمامي وابتلعته رعبًا.. لم أتألم بقدر ما فُجعت، كان الخوف يشلُّ ركبتيّ فترتعشان، وأشعر بالبلل في ملابسي، ذهبا بي بسرعةٍ..
وفي منزلهما الطيني ذلك اليوم بكيت كثيرًا جدًا.. ارتفع صوتي وأنا أبكي وأردد:
«أريد أمي.. أريد أمي!».
أتى الرجل وضربني ضربًا مبرحًا برجله حتى سال الدم على وجهي وهو يصرخ بي:
- اسكتي، ولا كلمة..

ونسيتُ في تلك اللحظة البكاء.. قد أكون نمتُ؛ ولكنني في الغد وجدتهما يقومان بغسل وجهي ومشط شعري بقوة، لم يطعماني رغم أني لا أستطيع أن آكل أو أشرب، فمي متورمٌ نازف، متألمةٌ أنا وخائفة، لم أبكِ رغم شعوري بالألم.. ألبساني ثوبًا جديدًا لكن رائحته كريهة..

وقالا لي:

- ويلٌ لكِ إن أنتِ بكيتِ!..

١٤

أخذاني إلى أستوديو وتم تصويري هناك، أطلقا عليّ اسم (حسناء)، ثم ذهبا بي إلى مكانٍ يجتمع فيه الكثيرون، ربما سوق، أصواتٌ كثيرة وصراخ بائعين، وهناك الكثير من السيدات الباكيات والكثير من الرجال يبكون وبعضهم يرتدي ملابسَ ممزقة، كنت خائفةً مختنقةً بالبكاء ولكني أخاف أن أبكي، وتكلما مع بعض الرجال، وأمسك بي أحدهم ورفعني من أذني، وقال:

«سأشتريها»

واشتراني.. كنت أرتجف.. خائفة، أخذني إلى منزله الكبير الذي يقع في مزرعة نخل، بيتٌ من الطين وله فناءٌ شاسع جدًا.. كان هذا الفناء متربًا بشكلٍ غريب، تحدثت إليّ امرأةٌ طويلة جدًا وتضع على أنفها قطعةً من الذهب (زمام)، قالت لي:

- تكنسين الحوش (الفناء) كل يوم.

ولم أعرف كيف أمسك بالمكنسة، كنت طفلةً ولم يسبق لي العمل، فدفعتني السيدة بقوةٍ من ظهري وصرخت بي:

- تحركي!.

وتحركت، فكنست تحت توجيهاتٍ صارمة تخللت هذه التوجيهات كفٌ على الوجه، ودفعةٌ للسقوط على الأرض..

لا أصدق مبلغ رعبي، كنت مرعوبةً خائفة أرتعش.. وأخاف أن أبكي.

في ذلك البيت لم يكن يُسمح لي أبدًا بالبقاء داخل المنزل بعد أن أُكمل أعمال التنظيف..

كنت أكنس وأغسل آنية الطبخ وأنظف المكان؛ ثم أذهب لأنام في آخر الفناء المترب على لحافٍ مهترئ..

١٥

كان يتم إيقاظي بركلةٍ من القدم وأصحو لأكنس كل الأماكن مرةً أخرى،
ورغم صِغر حجمي وجسمي إلا أنه كان يتم إجباري على حمل أكياسِ الأرز وأكياس السكر الكبيرة جدًا. وعندما كنت أقع على وجهي نتيجة ثِقل الأكياس كان يتم ضربي
بعصًا..عقال ..حجر، أو بأي قطعةٍ متواجدة قريبًا منهم؛ حتى لو كانت مصنوعةً من الحديد؛ وأكثر الأوقات بالقَدم، كنت في كل مرةٍ أنزف وأتألم بشكلٍ مريع ولكني لم أعد أبكي رغم أنّ دموعي لا تتوقف....
تدخلت ابنتي بصوتٍ باك قائلة:
- ليه ياجدتي؟ ليه كذا؟
وتردِّد ماما (حسناء) بحزن:
-كان الجهل يا ابنتي في كلِّ مكانٍ.. سرقة.. قتل.. لا يوجد أمان ولا إيمان في ذلك الزمان، كان هناك ظلمٌ.. ظلمٌ لا توجد أي وسيلةٍ لمنعه..
وأكملت ماما حكايتها:
-وفي المساء لم يكن يُسمح لي بالنوم طالما هم لم

يناموا بعد.. بل أجلس في طرف الفناء (الحوش) المظلم، وينسوني من الطعام في أكثر الأوقات.. وعندما يقدّم لي طعامٌ فإنه مكونٌ من بقايا الأرز، حيث يُوضع بين كفيّ في كل مرة وأتناوله...

وتقول ماما -بخجلٍ- وهي تتنهد:

ـ لم أكن أعرف كيف أغتسل، ولا حتى كيف أغسل يديّ القذرتين، لم أكن أعرف شيئًا إلا أن أحاول أن أتجنب الضرب ولا أدري كيف؟..

١٦

كنت لاأحبُّ ولا أكره.. أعيش كشيءٍ لا أعرفه.. لم يكن يُسمح لي بتناول الماء النظيف من (الزير) حيث يشربون؛ بل من (تانكي) ماء في الفناء.. وكان طعم الماء الحار رديئًا ..

كنـــت أموت خوفًـــا عندما يأتي ضيـــوف عمي من الرجال، فقـــد كانوا يجعلونني أقـــف بجوار نخلةٍ ويضعون على رأســـي أيّ شـــيءٍ مثل علبةٍ صغيرة، وويـــلٌ لي إن أنـــا تحركت، كانـــوا يملكون بنادق صغيرة (ساكتون) ويطلقون منها على الهدف الذي على رأسي ويصيبونني أحيانًا بخدوش نتيجة مرور الرصاصة قريبًا مني.. الرصاصات كانت صغيرةً حقًا ولكنها مؤلمةٌ ونازفة..

وفي يومٍ -وكانوا يتناولـــون طعام الغداءِ وأنا أقوم بالتنظيـــفٍ وقد امتـــلأ المطبخ بالأوانـــي- تجرأتُ وأكلت لقمةً واحدةً من البقايا في قاع إناء الطبخ.. ورأتني ابنتهم وســـكبت صابونًا علـــى بقايا الطعام، ووجدتُ نفســـي أســـقط على الأرض وأُضرَب بغطاءِ الإناء الحديدي على وجهي وبيد الهون على رأسي.. شعرتُ بأنني ذهبت إلى مكانٍ آخر، غبت.. ومع ذلك

نظفت البيت كاملًا وذهبت بشكلٍ تلقائي إلى الفناء.. وعدت مرةً أخرى دون أن أدري وبيدي مكنسةٌ كي أنظف المكان، وتفاجأت عندما طردوني وهم يضحكون ويقولون:

- ولكنكِ قمتِ بالتنظيف!

آلمني رأسي بشكلٍ مريع، وربطته بذلك الغطاء الوحيد القذر الذي أعطوه لي.. وكانوا قد ألقوه فوق أكوامَ الحطب في طرف الفناء..

وفي الصباحِ كانت عيناي وارمتين لا أستطيع أن أفتحهما، يحيط بهما دمٌ أسود، ولم أستطع أن أقف، وضُربتُ من جديد.

١٧

عمتي (صاحبة المنزل) كانت تضربني بقطعةٍ من الحطب على رأسي وتردد:

- تحرّكي!.

كنت أضع يدي على رأسي فوق الجرح كي أقيه من قوة الضرب، وكانت تصرخ بي:

- لا تضعي يدكِ

وانكسرت يدي من الرسغ.. وكدت أن أصرخَ ولم أستطع أن أقف.. الصراخ سيجعلهم يضربونني أكثر.. كنت أئنُّ بألم.. ووقفت أخيرًا على قدميّ وأحضرت لي ابنتهم غطاءً رأسٍ آخر كي أربط يدي المكسورة وأستكمل عملي...

ومرت أيام وأنا أشعر بآلامٍ مريعة..

نومي كان مؤلمًا فأنا أتألم من جراحي.. ويدي المكسورة تؤلمني بشكلٍ لا يتصوره عقل...

كم كان وقت الضرب طويلًا جدًا، وقت الضرب لا ينتهي، وأتمنى في كل مرة ألّا يتم ضربي في اليوم التالي على جراحي النازفة.. كان هذا الأمل دومًا في قلبي، حياتي خوفٌ مميت عشته.. كنت أخاف وقع أحذيتهم على الأرض، وأقفز كل دقيقةٍ.. أشعر أنهم

آتون لضربي، كانوا يتفننون في إيذائي كل يوم، لم أكن أستطيع أن أصرخ أثناء الضرب فقد كانوا سيضربونني أكثر إن أنا صرخت.. لكنني كنتُ أئن.. أنا فقط أتمنى أن يتوقف هذا الأمر قليلاً..

لا أعرف لماذا يتم ضربي وتجويعي؟.. ليتني كنت حيوانًا لكنت أُكلت ولكانوا توقفوا عن ضربي..

وماما تتحدث حاولت أن ترينا يدها المكسورة والتي جُبرت بشكلٍ خاطئ..

أكملت مامتي:

- في المزرعة كان هنالك رجلٌ يدعى (فلاح).. كان رجلًا كبيرًا جدًا في السن..

١٨

وجهه معروق.. يمتلئ بالشعر الأبيض، ولحيته شوكيةٌ كثّة.. ولا أعلم لمَ كنت أحبه؛ ربما لأنه كان ينظر إليّ نظرة أبٍ رحيم، كان يمنع العمال من التحرُّشِ بي؛ بل كان ينهضني عندما يُسقطني أحدهم على ظهري، كان يمنعهم بكل الطرق من الاعتداء عليّ.. فقط إن كان قريبًا مني في ذلك الوقت..

كان يساعدني ويعطيني الخبز واللبن في تلك الأيام التي لم أكن أجد فيها الزاد، ويأتي رمضان وأراهم يصومون لكنني لا أعلم لمَ يفعلون ذلك؟..

وفي يومٍ كنت في المزرعة أغسل الملابس، والعم (فلاح) ذو الوجه المعروق يجلس تحت نخلةٍ، كان يأكل التمر ويشرب الماء، أعطاني خبزًا وتمرًا، أكلت وشربت وشعرت باختلاف الماء..

الماء مع العم فلاح مختلف..

سأل: أنتِ تصومين؟

قلت : لا أدري كيف أصوم؟..

دمعت عيناه وقال: أنتِ صائمةٌ طوال الوقت!...

وأضاف: إنني أدعو ربي أن يخلِّصك من هذا العذاب.

قلت: لا أعرف ماتقول..

نظر إليّ طويلًا وهو صامتٌ.. لكنني كنت أشعر بالأمان في معيته..

سألني: هل لديكِ أيٌّ شيءٍ عن طفولتك؟..

قلت: لديّ قطعةٌ سوداء أعطاني إياها المصور الذي صورني، وطلب مني أن أخفيها عن الجميع ولقد أخفيتها في حفرةٍ تحت الحطب.

١٩

قال: غدًا سأكون بجوار الباب وأحضر لهم التمر، وأنتِ أعطني تلك
القطعة.
وأتى في اليوم التالي وأعطيته القطعة، ولم أكن أعلم أنها (عفريتة) صورتي.. عمي -هو الرجل صاحب المزرعة والمنزل- كان كل خمسة عشر يومًا يذهب إلى (الروشن) السوق، فيشتري أكياس الأرز وأكياس السكر الكبيرة جدًا، ويجب أن يقوم أحدهم بإدخالها إلى داخل المنزل..
لم يكن هناك إلا العَبدة؛ فأنا من يحمل الأكياس، كنت أسقط على وجهي ولخوفي من الضرب كنت أقف وأتعثر، وأشعر بألم مريع في ظهري وفي الحوض لدرجة أنّ رجليّ كانتا تتعاكسان أثناء المشي؛ بل كنت أجلس أحيانًا وأضم ركبتيّ على بعضهما وكأنني أعيدهما إلى ما كانتا عليه، ولكنهما لا تعودان بل تظلان تؤلمانني...
بكت مامتي كثيرًا جدًا وهي تتحدث...
وصمتت لأيام، ومهما استدرجتها للحديث كانت تسقط دمعةٌ كبيرة من عينيها؛ لذلك لم أعد أنا

إلى سؤالها أبدًا، لكنها أكملت ذات يوم ونحن نحتسي القهوة في فناء منزلنا:

وامتلأ جسدي وشَعري بالقمل، وطلبوا من أحد عمال المزرعة أن يأخذني إلى إحداهنّ، وخفت ولم أكن أعلم ما يراد بي، السيدة التي أخذوني لها كان منزلها صغيرًا ونظيفًا، ولقد أخذتني إلى فناء منزلها الصغير، ووضعت مادةً قوية الرائحة في إناءٍ وأضافت لها الماء ووضعته على شعري، شعرت بنارٍ تشتعل في رأسي وعنقي ..

٢٠

ثم قامت بتمزيق ملابسي جميعها، وشعرت بخجلٍ مميت، وسكبت بقايا
المادة على جسدي بعد أن أضافت لها الكثير من الماء، وحلقت شعري وهي تردد بألم:
«حسبي الله ونعم الوكيل!»..
كانت المادة الحارقة (مادة الجرة) كما قيل لي فيما بعد.. (ذُهلت أنا... مادة (الديازينون)، مادة سامة جدًا وحارقة.. آه مامتي كم تعذبتِ!)..
- هذه المادة مع موسي الحلاقة قد تسببا في نزفٍ كثيف من جراح رأسي.. لذا قامت السيدة بوضع مسحوق القهوة على الجروح، وأسقتني المرّ المنقوع في الماء، وطلبت مني أن أشرب منه كل يوم كي تلتئم جراحي.
وتردد من جديد:
«الله يسامحهم بس»..
أخذت السيدة في غسل جسدي وتنظيفي، وأحرقت ملابسي تحت النخل وألبستني من ملابس ابنتها.. كانت ابنتها جميلة جدًا، سألتني:
- ما اسمك؟

قلت: العبدة

ببراءة قالت لي: أنا (مزنة).

كانت أصغر مني قليلًا، أبهرني شكلها ووجهها وكانت والدتها تحبها، ليتني أعيش مع هذه السيدة، وقلت لها ذلك ولكنها لم تجبني..

أحضرت السيدة طعام الغداء ووضعته على السفرة كما يفعل عماني، ولدهشتي فقد طلبت مني أن آكل معهما!..

خجلت فلم أكن أعرف كيف آكل بيدي، كما أنني لم أستطع أن أبتلع اللحم فأنا لأول مرة أتناوله..

قالت السيدة:

- اغسلي يديك.

وعلمتني كيف أغسلهما..

٢١

ثم أمسكت بيدي وجرتني جرًا خارج منزلها كي تعيدني لهم، وأنا أنتحب وأقول:

- خليني معكِ سأخدمك أنتِ و(مزنة).

وأقول برجاء:

- تكفين.. تكفين، سأكون عبدتك!.

لكنها تقول:

- ما أقدر يا ابنتي.. ما أقدر!..

كنتُ أبكي وأقبل يدها وأجثو وأقبّل قدميها، وأنا أنتحب أرجوها أن تحتفظ بي، ففي وقت بقائي في منزلها شعرت بسعادةٍ، بشيءٍ ما سماوي نزل لي أنا فقط.. لكنها استمرت تجرني جرًا حتى أدخلتني من الباب الكبير المخيف، ارتعبت وأنا أسمعها تقول لهم:

- إن ماتت فلن تجدوا فتاةً في مثل قوتها وصبرها.. ارفقوا بها.. اتركوا لها قليلًا من الوقت ترتاح وزودوا لها الأكل، تنفعكم..

وذهبت تلك السيدة وابنتها (مزنة) اللتان أنار وجودهما المؤقت حياتي لوقتٍ قصيرٍ جدًا... وتحسنت معاملتهم لي قليلًا، صحيح أن عملي لازال كما هو لم يتغير، فقط هو الضرب الذي بدأ يخف، أحببت

تلك السيدة جدًا وأحببت ابنتها..وأضافت:

- ولا زلت أحبها حتى الآن.

مامتي توقفت عن الحديث ومهما كلمناها كانت لا تجيب؛ لذلك أخذتها إلى الداخل، جلست أمام التلفزيون وكأنها لا ترى ما يُعرض...

وفي الغد ونحن نجلس جميعنا إلى جوارها نتناول القهوة التي تحبها قالت:

- بعد يومين وأنا أغسل الملابس في المزرعة فوجئت بـ (بمزنة) بنت السيدة التي نظفتني تقذف لي الحصى (الحجر الصغير) من فوق

سور المزرعة كي أحدثها، وهذه كانت إشارةً بيني وبينها..

٢٢

كان وقت المزرعة من أمتع الأوقات وأجملها فقد كنت آكل من الرطب المتساقط الذي أسقطه الطير، والآن وجود (مزنة) جعل من ذلك الوقت شيئًا آخر..
(وسحابة ذكرى ترتسم على وجه ماما)
-كبرتُ وقرروا تزويجي من عبدٍ في المزرعة المجاورة، شريطة أن يأتي للعمل في مزرعة عمي .. واتفقا على أنّ أول طفلٍ أنجبه يأخذه الجار وثاني طفل يكون لعمي.. سبحان الله!.. لم أكن أعلم ما يراد بي .. من كلامهم سمعت أنني عبدةٌ قوية وسأنجب الكثير من الأبناء الأقوياء ليخدموهم، وتم تزويجي من ذلك الرجل، كان يبكي، لا يريدني بل يرغب في أخرى يحبها ولكنه أُجبر على أن يتزوجني.. ووضعوا لنا غرفةً من الحديد (شينكو) في وسط المزرعة لها نافذة لا تُغلق وبدون باب ..
كان (جوهر) -وهذا هو اسمه- عبدًا قويًا ولطيف الصوت، كان لا يتحدث مع أحد إلا معي، أخبرني أنّ أمه وأبوه هم عبيد عمه الجار، وأنه رأى الجار وهو يضرب والده بالعصا على وجهه، وبكى كثيرًا في ذلك المساء...

مرت أربعة أشهر، وأحببته حبًا شديدًا؛ بل إنه هو الحب الوحيد في حياتي، ولم أستطع أن أحمل فقاموا بتطليقي منه.. ولقد بكى أيضًا ذلك المساء كما بكى في ليلة العرس، ولكن هذه المرة لأنه لا يرغب في أن يفارقني .. وزاد هذا الأمر في تعذيبي.

٢٣

بكت ماما كثيرًا جدًا وهي تتحدث.. وتوقفت ماما (حسناء) عن الحديث أيامًا وأيامًا.

وأتحرق شوقًا لمعرفة ما حدث فيما بعد لكنها لم تتحدث.. بالنسبة لي أنا كنت في كل يوم أشعر بالبهجة لأنني سأراها عندما أعود من عملي.. حتى بناتي لم يعدن يرغبن في الذهاب إلى بيت جدهن للعب مع بنات أخواتي؛ يردنَ أن يظلن معها في المنزل إلا أن تذهب الجدة معنا..

قليلًا قليلًا أحبت ابنتي الصغرى، كانت تلاعبها وتدللها وتتناول الطعام معها قبل أن نأتي من المدرسة، ابنتي الصغرى كانت دائمًا تذاكر جالسةً فوق الطاولة الكبيرة التي أضع قدمي مامتي عليها كي لا تتورما قبل أن أذهب إلى عملي..

مامتي فعلًا أصبحت أكثر سعادةً؛ فهي تحتفل مثلًا باليوم الوطني مع بناتي وتحاول الغناء معهنّ، وتحتفل معهن بـ البيعة، وبيوم المعلم، كن يحتفلن في مدارسهن ثم يعدن للمنزل ليحتفلن معها، وفي كل مرة وفي كل حين وهي في أوج سعادتها تقول: «يارب أدخل (فيصل) الجنة، يارب».

أواه، كم أتمنى أن أعرف هذا الـ (فيصل) الذي تدعو له باستمرار، وفي كل الأوقات؛ عند الألم وعند الذكرى وفي أوقات السعادة!.

وفي رمضان عام ١٤٣٣ هـ في اليوم السادس عشر من رمضان وبعد مضيِّ عامٍ على وجود مامتنا (حسناء) في منزلنا؛ قررنا الذهاب إلى مكة

وسألت أنا مامتي:

- هل سبق أن ذهبتِ إلى مكة؟

٢٤

قالت: لا واللّٰه، أسمع عنها فقط.
وأخذت البنات يشرحن لها قصة البيت الحرام وكيف أنّ نبي اللّٰه (إبراهيم) عليه السلام بنى البيت الحرام في مكة... وبعد السحور في يوم ١٤٣٣/٩/١٦ هـ، ذهبنا في السيارة، ماما كانت تركب إلى جوار السائق في المقعد الأمامي، وتتمايل وهي تغني تارةً وطورًا تردد:
«لبيك اللهم لبيك»
والبنات يرددن معها كل شيءٍ... استغرقت الرحلة أربع عشرة ساعة كاملة، كنا في ثلاث سيارات حيث رافقتنا أخواتي وأبناؤهن، تخلل الرحلة سوالف ونوم البنات ومن ثمّ نوم السائق، وتوقفنا لتناول الطعام والقهوة..
وأخيرًا وصلنا، سقطت عربة ماما المدولبة من فوق (سطح السيارة)، شهقت ماما وبكت؛ لكنني قلت لها بأنني سأحضر لها أخرى، ووصلنا شقق البرج القريبة من الحرم، وذهبت إلى الأسواق أسفل البرج وأحضرت عربةً جميلة وخفيفة نوعًا ما، ماما كانت تبتسم بوجهها كاملًا، فرحت بالعربة الجديدة كطفلٍ.. كل شيءٍ كان يفرحها ويسعدها!..

نمنا وفي الساعة الواحدة صباحًا كنا متواجدين في صحن الكعبة المشرفة،

ماما كانت مبهورة جدًا..

قلت لها: ماما، هذا بيت الله سبحانه وتعالى..

٢٥

ذُهلت وقالت: متى نزل من السماء؟!..
صُدمتُ وجلست على الأرض بجوارعربتها.. «هل بلغ الجهل بالناس هذا المبلغ»؟!..
وشرحت لها قصة بناء البيت الحرام وأخذت تفكر.. وتردد:
«ربي .. ربي الذي في السماء»!..
قلت: لم ينزل من السماء يا ماما، وهذا البيت الذي بناه (إبراهيم) عليه السلام.
وأخبرتني أنها قد سمعت هذه القصة سابقًا من البنات ولم تفهمها، كم أحببتها في ذلك اليوم مامتي الطفلة.. مامتي البريئة..
طفنا حول الكعبة ووجها يضيء بابتسامة البهجة والسعادة، وكررت الدعاء لـ (فيصل)، ولم أعد أسألها، ولم ننهِ السعي فقد نامت مامتي.. انتظرت نصف ساعة حتى استفاقت قليلًا.. ومن ثمّ تسحّرنا وصلينا وأكملنا عمرتنا..
وبناءً على اقتراح الجميع مددنا إقامتنا إلى أربعة أيام.. كنا نصلي في الحرم ولكننا نأخذها معنا في كلِّ مرة، ونتناوب على من يقوم بالطواف بها وهي

في عربتها، ذهبنا إلى الأسواق ودرنا في شوارع مكة، كانت سعيدةً إلى درجة لا يمكن وصفها، وفي اليوم الخامس ذهبنا إلى جدة..

يا الله ما أجمل ذلك اليوم!..

كانت ماما تضحك بهستيريا.. تفاجأت هي أنّ هذا بحرٌ وطلبت أن تلمس ماء البحر..

٢٦

وأحضرت لها البنات بعضًا منه، قمت بغسل يديها بماء البحر وهي تضحك، وتقول:

- البحر كبير، سبحان الله، ليته كان في الرياض!...

وعند المغرب أفطرنا بجوار البحر، وكانت تتحدث إلى المارة وتبتسم لهم وأكثرهم قبّل رأسها وهو يبتسم لها، طلبت أن نجلسها على رمال الشاطئ وأخذت تبتسم ورددت مقولتها الشهيرة:

«يارب، أدخل (فيصل) الجنة».

ثم سألتني:

- هل الميت يستطيع أن يسمع مانقول؟

قلت: يكفي أنّ الله يسمعك تدعين له.

ذهبنا إلى تلك الشقة المفروشة التي استأجرناها، جلسنا حتى بعد الإفطار حيث تحركت السيارات جميعها في طريق العودة إلى الرياض..

كنا نمشي قليلًا قليلًا.. ووصلنا الرياض بعد خمس عشرة ساعة أو أكثر، تخلل الرحلة الكثير من الوقوف والضحك والمرح..

كانت ماما سعيدةً جدًا.. ونقف في بعض المحطات لتغيير ملابسها

والذهاب بها إلى دورات المياه والصلاة.. وبقيت مامتي أكثر من شهر وهي تتحدث عن هذه الرحلة وكيف رأت مكة وكيف رأت بيت الله، كانت مبتهجةً وسعيدة وتتحدث ماما بهذا الأمر لكل الناس، وأصبحنا نذهب كل أسبوع إلى أهلي ويستقبلها الجميع بكل حب واحترام، كان والدي يقول:

-خلاص بنأخذك عندنا..

وتقول: ما أحد يأخذني من بنتي.

وتضحك ويضحك الجميع بسعادة... وتمرض أمي بشكلٍ مفاجيء وتبدأ رحلةً أليمة مع السرطان لأمي ولي؛ فقد تقدمت إلى عملي بإجازة بلا راتب كي أظل بقربها..

٢٧

ونمت في المستشفى مع والدتي؛ فقد كنت الأقرب لقلبها من الجميع..

في المستشفى التخصصي كانت مامتي والبنات يأتين إليّ في كل يوم بعد خروج البنات من المدرسة، ويحضرن معهن القهوة والتمر، وتتحدث كثيرًا مع والدتي رحمها الله وتدعو لها كثيرًا..

وقالت لأمي ذات مرة:

- احمدي ربي فأنتِ رأيتِ بناتك إلى جوارك؛ لكن أنا...

ودمعت عيناهان لكن أمي قالت لها:

- لكنكِ أختي وأمي، وبناتي هن بناتك.. ثم ألم تري بنات ابنتي يجتمعن حولك ويقلن لكِ (جدتي) ويحببنك أكثر مما يحبونني؟ ربي لطيف سبحانه، لا توجد أخوة إلا فوق الأرض، أنتِ أختي وأمي والله شاهد..

يزداد مرض والدتي .. كانت والدتي أجمل امرأة، (حسناء) وقد ظلت جميلة.. وأعود للمنزل بعض الأوقات لأتأكد من احتياجات البنات، ولكنني أنام إلى جوار والدتي في المستشفى وكأنه لا يوجد لها من البنات إلا أنا ..

كانت مامتي جميلة تقول لي دومًا:

- لا تخافي على البنات أنا معهن..

وفعلًا كانت لا تنام حتى تتأكد أنهنّ ذاكرن ونمن... وتغادرنا والدتي ذات فجر.. وأصرخ كما لم أصرخ في حياتي.. وتظلم حياتي من جديد، ما أصعب الموت.. وما أصعب الحياة عندما يختفي أولئك الذين نحبهم كل الحب!.. تصبح حياتنا جرداءَ بلا رائحة بعد ذهابهم.. وأشعر بيأسٍ قاتل، ليتني مت بدلًا منها.. وتقول ماما:

- يا ابنتي لمن تخلينا انتبهي لنفسك ..

٢٨

وتبكي بشكلٍ أليم وتقسم عليّ أن آكل قليلًا من التمر، وتقول:

-أبقاني التمر والماء حية عندما كنت أحتاج إلى أن أحيا..

وأطاوعها وتدعو لي.. كنت لا أنام؛ بل أنام لأصحو وأصحو لأنام... وأبكي، ولكن عندما أفتح عيني فأنا أرى ماما (حسناء) أمام وجهي تنظر إلي لتطمئن عليّ، تجلس على عربتها المدولبة بحزنٍ وترفض أن تتركني، أصبحت لا تنام إلا بعد أن تتأكد أنني نمت..

وفي أحد الأيام نامت على كرسيها المدولب بجوار باب غرفتي كي تتأكد بأنني نمت، وكل شيءٍ في الحياة بدأ جرحٌ داخلي يلتئم.. وتمر الأيام وأغرق في العمل، وفي الإجازة الصيفية نقرر الذهاب إلى المنطقة الجنوبية، وأيضًا رحلة بالسيارة، كنا كلما توقفنا تردد ماما (حسناء):

- ليه، ماذا يحدث؟

ويظلم وجهها ولا تخبرني ما بها، لست أدري.. لست أدري.. ترى ما الذي أثاره هذا المكان في داخلها؟!..

وعندما دخلنا إلى المنطقة الجنوبية رأيت سحابةً من الحزن تغشى وجه مامتي، سألتها:

- ماما، ليش حزينة؟

قالت ماما: أحزنني هذا المكان يا ابنتي..

سألتها: لماذا يا أمي؟

٢٩

قالت :

أتيتُ إلى هنا يومًا على حمار، كنا نحمل (تنك) من التمر، أحمل اثنتين وعمي يحمل واحدة، والباقي يحمله ثلاثةٌ من الرجال، يرافقنا أربعة من الحمير القوية أحدها يركبه عمي، وواحد يحمل (قرب الماء) والثاني يحمل التمر والخبز(زادنا)، ونذهب إلى سوق الثلاثاء لبيع التمر، سوق منطقة أبها، كانت من أصعب الأيام في حياتي.. هذا المكان يذكرني بأشياء لا أريد أن أتذكرها، الرجال كانوا لا يتوقفون عن إسقاطي على الأرض، حتى الذين لا يعرفونني يؤلمونني جدًا.. عمي (فلاح) لم يكن هناك ليمنعهم عني، لا أحد معي.. لا أحد.. أظل مستيقظةً طوال الوقت خائفةً متألمة..

لن أنسى ذلك الوحش (مفرح)، وهو رجلٌ عنيف وقذر بيده دومًا عصًا دقيقة السمك يسميها (مطرق)، كان في كل يوم عندما يصحو يقول:

- نسيت أن أضرب العبدة اليوم!

ثم يأتي إليّ فيجلدني بتلك العصا حتى أكاد أن أفقد وعيي، كان يضحك وهو يراني أقفز متألمة وتجرأت يومًا وذهبت إلى عمي وبكيت أمامه،وأخبرته

عن (مفرح)، واستدعاه وقال له:

- لا تجلدها مرة أخرى

ولكنه في غفلة من عمي جلدني حتى تشقق جلدي وأخذ ينزف دمًا من جميع أنحاء جسمي، وحذرني:

- عندما أجلدك لا تتكلمين.. عندما أسقطك لا تتكلمين.

٣٠

ولم أتكلم بعدها أبدًا ..

كان يضربني كل يومٍ دون أن أعلم السبب ودون أن أخبر أحدًا...

وقلت وأنا أبكي:

- لكن لماذا يا ماما؟

قالت:

- جهل، لا دين ولا مخافة من الله.

ولا أعلم لماذا استمريت أردد:

- ليه يا ماما؟ ليه؟!..

لم تحب مامتي هذا المكان؛ فقد كانت تبكي طوال الوقت لذلك عدنا سريعًا، مكثنا سبعة أيامٍ فقط ثم عدنا إلى الرياض، في طريق العودة عادت إليها بهجتها، وعندما دخلنا الرياض عادت البسمة إلى محياها، كنا دائمي الخروج، نذهب إلى الحدائق، وذهبنا يومًا إلى ملاهي الخيمة، ومامتي تنظر إلى بناتي بفرحة.. لم تكن ترى في ملاهي الخيمة أحدًا إلا بناتي، كنت أتناوب مع خادمتها في دفع كرسيها المدولب لترى كافة أنحاء المكان، وفي مطعم الخيمة دُهشت وهي تطلب مني أن أنتزع غطاء رأسها لتعطي ابنتي الصغرى

مالًا.. أمنعها ولكنها تقول:

- هذه لبناتي الصغيرات، وهذه الريالات أنا أخفيها لهنّ، لا تتكلمي.

وتضحك وهي تقول: لم نطلبك مالًا ولن نعطيكِ مما نشتري شيئًا!

وابتسم لها، وألتقي زميلاتي هناك ونضحك ونشرب القهوة مع ماما وتتحدث إليهن بفرحة، وكلما وجهن كلامهن إليها كن يقلن لها:

«يا والدة»..

٣١

وفي الصيف تم ترشيحي للعمل كمديرة نادٍ صيفي موسمي، كانت ترافقني مع بناتي وخادمتها، تجلس في الساحة وفي مصلى المدرسة مبتهجةً وهي تنظر إلى الفعاليات وتشجع الجميع، إنّ ماما أمٌ عزيزة وحبيبة في أسرتنا، كانت نعمةً من اللّه..

كنتُ أيضًا أذهب بها إلى دار تحفيظ القرآن الكريم، وتستمع إلى القرآن وفي كل مرة تعود وهي مبتهجة، وتقول:

- ربّي عَوضني خيرًا يشهد الله ..

كنت أقبِّلها وأنا أبتسم وأقول:

- وربي أعطاني ماما (حسناء) حبيبة.

وتضحك وهي تقول:

- عجوزٌ متعبة ومشلولة..

وتتنهد وتكرر ذلك الدعاء الأزلي لذلك الرجل (فيصل)!..

نذهب إلى حفلات الزواج، وتطلب إليّ أن أرقص وهي تنظر إليّ وكأنه لا يوجد في هذا المكان إلا أنا، هذه هي ماما، الأم التي أحببتها كل الحب. وذات يوم بدأت مامتي تتألم من بطنها، وذهبت أنا بها

إلى مستشفى الملك فهد (المدينة الطبية)، ولقد تم احتجازنا أنا وهي في قسم الملاحظة في الدور الأرضي، كانت أطول ليلةٍ في حياتي أمضيتها على كرسي، كم كانت مامتي مريضة، كنت إلى جوارها أهدئها وأخفف عنها، وتعود إلى البؤس القديم وتطلب مني الاتصال على بناتها، وأتصل على بناتها طوال الوقت لكن لا مجيب، وأرسلت ابنتي (منى) إلى الدار تبحث عمن يعرفهنّ.. وأخيرًا ردت ابنتها الكبرى على اتصالات ابنتي وقالت بأنهن سيأتين..

ولكنهنّ لم يحضرن إلى المستشفى ذلك اليوم ولا اليوم الذي بعده، وتلح ماما:

- يا ابنتي خلي بناتي يجون.

٣٢

وقلت لها: سيأتون بأمر الله

وفي اليوم التالي تم إيجاد غرفة لماما، قال لي الطبيب أنها تعاني من ورمٍ في الأمعاء، كنت مرافقتها أنا وخادمتها وفي المساء حضرت بناتها جميعهن، وعندما رأتهن أدارت وجهها إلى الناحية المقابلة، كانت غاضبة منهن، ولكن عندما ذهبن بكت كثيرًا لدرجة أنّ الطبيب أتى ليعطيها مهدئًا..

كانت تقول لي:

- يا ابنتي تراهن جاهلات لا تزعلين منهن.

وأنا أقول لها:

- عادي يا ماما عادي، ما زعلت والله منهن..المهم أنتِ.

وعادت تقول:

- معذورات، كنت مشلولة وأتعبتهن.

قلت لها:

- وسعي صدرك يا ماما واللي لا نستطيعه اليوم نستطيعه غدًا، نامي وارتاحي بناتي يجون يشوفونك غدًا، هن يحببنك جدًا.

ابتسمت، وبعد قليل نامت...

وفي الليلة الثالثة كانت تعود مرة أخرى إلى الماضي،

وأعرف بأن رثاء النفس دليل راحة لذلك لم أتكلم بل بقيت منصتةً..

وبدأت تقول:

-طوال حياتي عشت في الأحزان حتى اعتادتني، كل حياتي بهذا الشكل الذي ترينه، لم أجد الراحة في هذه الدنيا..

سألتها:

- ماما كيف جئتِ إلى الرياض؟

ابتسمت لذكرىً قد تكون جميلةً وقد لا تكون وقالت:

- الملك (عبدالعزيز) أصدر أمرًا قبل وفاتهِ ألّا يكون في المملكة عبيدٌ..

٣٣

ومنعَ أن يُباع العبد أو يشترى أو أن يُتاجر به، كُنّا مثل الأغنام نباع ونُشترى في كل مكان، وأخافَ هذا الأمر عمي وعمتي، وخوفوني بأنّ هناك من سيأخذني ليقتلني، ومنعوني من الحديث مع (مزنة) أو مع أي أحد خارج المزرعة.. وفي يومٍ اقترب مني العم (فلاح) وأنا في المزرعة أغسل الملابس وقال لي:

- الأمير (فيصل بن عبدالعزيز) ولي العهد أرسل إلى أمراء المناطق بالإبلاغ عن أي شخصٍ لا يعتق العبيد، ولقد أبلغت عن عمك، تستحقين أن تُعتقي، صبرتِ كثيرًا جدًا.

خفت وقلت:

- سيقتلونني..

لكنه قال:

- غير صحيح، آل سعود لا يقتلون أبدًا.

طمأنني وقال:

- ستصبحين حرّةً، تنامين متى أردتِ، تأكلين متى أردتِ، تتحدثين متى أردتِ.

وسحرتني الفكرة وبقيت أنتظر أن يأتي الأمير (فيصل)

ليأخذني، حلمت بأنه سيشـــتري لي الأكل والملابس وسيسمح لي بالنوم قبل أن ينام، لن أتوانى عن خدمته؛ بل سأقبِّل قدميه صباح مساء، وأسمع عمي يقول:

-العبدة قوية ولن نجد أحدًا يخدمنا مثلها.

وبعد أسبوع اشترى لي عمي ملابسَ جديدة ولأول مرة في حياتي سألبس ملابس جديدة، أقسم بالله لأول مرة في حياتي!.

كنت أمشي قليلًا قليلًا كي لا تتجعد هذه الملابس، كنت مزهوةً.. فرحة.. سعيدة..

وطلبوا مني أن أقول للرجل الذي سيأتي في المساء بأنني أرغب في البقاء معهم، وأنهم يعاملونني بشكلٍ جيد، واجتهدوا في تخويفي وأن هؤلاء سيقطعون يدي ورجلي..

٣٤

وقمت لأنظف البيت كعادتي، كنت أنظف البيت دون وعي، أريد التحدث إلى العم (فلاح)، أريد أن أخبره..
قلتً:
- سأحضر الملابس من فوق الشجرة التي نشرتها عليها.
ولم يكن هناك ملابس، ركضت إلى بيت العم فلاح وأخبرته..
قال:
- الحمد لله، لا تصدقيهم واطلبي العتق ومغادرة منزلهم وأنا سأكون هنا إلى جوارك، تعالَي إذا انتهى كل شيء.
وعدت مسرعةً إلى الدار ورأتني ابنتهم وصفعت وجهي وهي تقول:
- كاذبة أين الملابس؟
لم أتكلم، ولكن أمها قالت:
- ليس الآن، إذا راحوا علميها كيف تكذب علينا مرةً أخرى!..
استدعاني عمي وقال:
ـ هذي ابنتي تربت في بيتي مع بناتي وأعاملها مثلهن.. وزوجتي تحبها جدًا.

الرجل سألني:

- هل ترغبين في البقاء مع عمانك؟

قلت كما أوصاني العم فلاح:

- أرغب في أن أذهب خارج منزلهم.

وعندما همّ بالمغادرة قال لي:

- أعتقكِ الأمير فيصل بن عبدالعزيز بناءً على أمر الملك عبدالعزيز رحمه الله والملك سعود.

ولقد دفعنا قيمتك مبلغ (خمسة عشر ريالًا) ثمنًا لكِ لهذا الرجل، الآن أنتِ حرةً طليقة لا أحد يملكك، صك العتق تأخذونه من المحكمة، فمن توكلين لمراجعة المحكمة؟.

قلت: العم فلاح ...

٣٥

بكل براءة العالم لحقت بالرجل وقلت:

- سأخدم الأمير فيصل ليل نهار ولن أتعب، سأقبِّل رجليه في كل يوم!.

ضحك وقال لي:

- لقد أعتقك لوجه الله تعالى ولست مضطرةً إلى خدمته.

وانفتح قلبي ليصبح الأمير (فيصل) هو كل حب الدنيا في قلبي، منذ تلك اللحظة وإلى أن أموت سأظل أدعو له.

واستدعى هو العم فلاح الذي كان يقف قريبًا، وسأله الرجل عن اسمه ومهنته، وأخبره العم فلاح بكل شيء..

قال الرجل: أنت المسئول عنها أمام الله ثم أمامنا

قال العم فلاح: هي معي، ابنتي.

وذهبت معه، ذلك المساء نمت ولم أستطع أن أصدق بأن هذا يحدث لي...

(وتذكرت أنا صك عتقها بتاريخ العام الهجري ١٣٨٢ هـ)

-كان حلمًا لم أحلم به يومًا، كنت قد فقدت آدميتي، لا أصلي ولا أصوم، كنت بهيمةً من البهائم، إنه حلم.. عتقي من العبودية حلم، فقط تمنيت أنني

رأيت (فيصل) رؤية العين، لكن الله سبحانه وتعالى ما كتبها لي، المهم أنني صحوت وقمت بتنظيف بيت العم فلاح، وعلمني كيف أصنع القهوة وصنعتها وكانت قهوة رديئة جدًا وقال لي:

- سوف تتعلمين بسرعة.

عندما ذهب إلى خارج المنزل أغلقت الباب الخشبي الكبير خوفًا من أن يعود أحدٌ ما لأخذي، وعندما عاد كان يحمل حقيبةً من النحاس الأبيض بها ملابس جديدة لي..

٣٦

وقال: هذه حقيبتك يا ابنتي، وفيها ملابسك وكريم لشعرك وشامبو، استعدي وجهزي نفسك، أنا مريض وأكيد عمك سيطردني من العمل لذلك سأغادر، ولدي يعمل في الرياض ونحن سنذهب إلى الرياض. أكلت وشربت من القهوة لأول مرة في حياتي.. كم الحياة جميلة.. فيصل.. فيصل.. يا الله، أنام دون خوف، دون ألم، لن يعود أحدٌ إلى إسقاطي أبدًا، سأقف في وجه من يريد أن يؤذيني وسأخبر (فيصل) عنه، وأبتسم وأشعر أن وجهي يؤلمني من الابتسام الذي لم أعتده، فيصل

هو من أعاد لي آدميتي.. فيصل، ليتني رأيته لكنت قبّلت قدميه!..

كنت أتمنى أن أخبره بأنه لم يعد أحد يضربني، لم أعد عبدة، وذهب العم فلاح بعد يومين إلى المحكمة وأحضر صك عتقي، وفرحت جدًا بهذا الصك.. وبعد ثلاثة أيام كنا في المواقف في الروشن نبحث عن عربة تقلنا إلى الرياض، ووضعونا في سيارة كبيرة جدًا اسمها (اللوري) واتجهنا إلى الرياض..

٣٧

ونامـــت ماما.. في اليوم الثالث أتت الطبيبة الخلوقة التي تشرف على حالتها، وتحدثت إليها بهدوء وحب، وحضرت لزيارتهـــا أخواتي وصديقاتي ومن ضمنهن الأســـتاذة الصحفية (ليلى عنانـــي)، كن يأتين كي يجلســـن معها قليلًا، كانت تبتهج لرؤيتهن، وهدأت مامتـــي كثيرًا جـــدًا، وتأتي بناتي في كل مســـاء ويحضرن القهـــوة والتمر وتشـــرب القهوة معهن، مامتـــي البريئة مامتي الحبيبـــة.. وتضحك عندما تراهن وتتحدث معهن..

ولقد آلمني أنها تطلب مني وضع الفاكهة والعصير الذي يكون مع وجبات الطعام في المستشفى، تطلب وضعه في الدرج، وعندما تأتي بناتي كانت تقول لهن:

- لقد أخفيت لكنّ الفاكهة والعصير..

لقد كانت مامتنا وجدتنا الحبيبة، وتطلب رؤية السائق الباكستاني ويأتي لتقول له:

-سامحني لأنني أتعبتك.

وتدمع عيناها، ويبتسم لها ويقبل رأسها، أحزنتني وهي تطلب منا أن نسامحها لأنها أتعبتنا ونحن نقول:

- لم تتعبينا لقد كان وجودك نعمةً في حياتنا.

وفي اليوم الرابع أتت الطبيبة وأخذت تسأل ماما (حسناء):

- ما أسباب الجلطة التي أصابتك يا خالة وأدت إلى فقدانك الحركة في أطرافك الأربعة؟ أنتِ لا تعانين من أي من الأمراض المزمنة مثل السكري والضغط.

لكن ماما لا تجيب بل تبكي بشكلٍ أليم .

٣٨

وفي المساء قبلت رأسها وقلت لها: نامي يا ماما

قالت لي: (حسين) مات يا ابنتي! كأنني أشوفه جنبي في الغرفة الآن، كان يحبني ولا ينام إلا بعد أن يتأكد بأنني نمت.

قلت لها: هل ترغبين في أن تحدثيني عن حسين؟

وأخذت في البكاء من جديد حتى أنني ندمت أنني سألتها عن ابنها (حسين).

قالت:

- عندما مشينا من (بيشة) استغرقتنا الرحلة إلى الرياض سبعة أيام، طرق متربة، ويقف السائق ويفتح السيارة كي تبرد، ولا أعلم كيف شعرت بإرهاق شديد.. كنت في سيارة اللوري في الخلف ومعنا الكثير من (تنك) التمر وفرش الخوص كي يبيعها صاحب السيارة في أسواق الرياض، ركبوني فوق هذا الخوص وأتفاجأ بوجود عشرة من الرجال وثلاث من النساء معنا، كلنا كنا عبيدًا، والله إني أشوف وجوههم وأقول.. «ليتني أشوف ذلك الرجل الذي زوجوني إياه وأحببته كل الحب!».. في الرحلة كنا نأكل أي شيء يقدمونه لنا في المحطات، لم يكن معنا

جميعنا مالٌ ولكن صاحب السيارة اشترط على الرجال أن يعملوا معه شهرًا في بيع تنك التمر والخوص، وتنظيف السيارة والاحتطاب وتحميل الحطب الذي سيذهب به إلى بيشة لبيعه، ووافق الجميع؛ أما النساء فقد وعده العم فلاح خيرًا وبأنه سيعطيه المال على دفعتين، ووافق الرجل..

٣٩

ضحكت ماما وقالت:

- تدرين أنني سقطت من اللوري مرتين!

أنا والخوص انزلقنا وسط الضحكات وصراخ العبيد لتنبيه السائق، والله يا ابنتي ما كنت أعرف هذا الجانب من الحياة، جانب جميل والكل يحب الكل.. والله كنت أطير فرحًا لا أريـــد أن أنام كي لا تفوتني لحظاتٍ جميلة، يارب أنني مدينة بحياتي لفيصل، يارب كيف أرد دَينه؟ تمنيت أنني رأيته؛ لكن ما قدرت..

قلت لها: ادعي له يا ماما، لقد كان رجلًا عظيمًا جدًا.

قالت: ستون عامًا وأنا ما توقفت عن الدعاء له .. إن فرحت دعوت له، إن تألمت تذكرت الماضي ودعوت له، وسأدعو له إلى أن أموت؛ لقد أنقذني من أن أعيش الموت كل يوم..

- وفي الرياض كنا منهكين وأخذني العم فلاح إلى بيت ولده ونمت في ذلك المساء كنوم الموتى، كنا نسكن حي الشميسي القديم، البيوت متقاربة غريبة وجميلة لكنها مريحة في ذلك الوقت، لم أستطع البقاء في بيت عمي فلاح فقد كان يخاف عليّ حتى من ولده.

٤٠

لذلك عندما عرض عليه (أبو سالم) أن يتزوجني وافق عمي على الفور،

وتزوجت (أبو سالم) ولم يكن يحبني؛ ولكن أم سالم سيدة لا تخدمه ولا تغسل ملابسه ولا تطبخ له.. أما أنا مع كل ما مر بي فقد كنت أنشط النساء، وسكنّا في السبالة قريبًا من حي الشميسي، ورزقني ربي ثلاث بنات كن حياتي كلها، وتغير أبو سالم كثيرًا معي، أصبح يمل الجلوس معي، يغضب عندما أتأخر في صنع الغداء.. ينتقد البيت وينتقدني

يعاملني كخادمة له، ليس كزوجة، لم أتألم كثيرًا فقد أصاب الجفاف مشاعري، لم يعد يحضر لنا طعامًا وعندما كلمته طلب مني أن أقف مع النساء عند المسجد الأبيض الكبير في شارع الشميسي العام، كنت أقف وفي نهاية اليوم يكون معي ريالان أو أكثر وقليلٌ من الزاد، بناتي كنّ يلعبن بجواري وأدمنت الذهاب والجلوس بجوار المسجد..

كنا دائمًا نتجاذب أطراف الحديث ونتحدث عن أخبار الحارة، رغم الفقر والحاجة فقد كنت حرةً سعيدة أعود متى أردت.. أنام متى أردت.. لا يضربني أحد،

لا أخاف ولم أخف بعد تلك الأيام أبدًا، فيصل هو من استحق أن أدعو له.. فيصل هو من أنقذني من كل شيءٍ..

وحملت بابني (حسين)، وعندما ولدته طلّقني أبو سالم..

٤١

يقول لعمي فلاح:

- ما أقدر أصرف عليهم وهذي ما وقفت، كل شوي حامل!.

بكيت؛ رغم أنني لم أحزن لفراق أبو سالم فأنا أملك أسرتي، ويموت العم فلاح ذات فجرٍ وأبكيه بشكلٍ مؤلم، بكيته فقد كان والدي.. كان عائلتي في أوقات ألمي وحزني.. وبدأت أشعر أن (حسين) هو الأمل المتجدد، لم تتوقف حياتي، لي ابن سيكون إلى جواري عندما أحتاجه.. وأخذت أوفر اللقمة للبنات؛ فأبو سالم لم يكن يعطينا شيئًا، كان هذا الأمر يحزنني فأنا لا أفكر باليوم التالي وماذا سآكل، بل كنت آكل ما يُقدم لي بدون نقاش فقط كي لا أشعر بجوع، ولكن مع البنات شعرت بالقهر والحزن، كنّ يرغبن في شراء الحلوى (الطحينية) كي يأكلنها مع الخبز، ولكنها غالية ولا تتوفر كل يوم، كن يرغبن في أكل الفاكهة لذلك عندما أجلس بجوار المسجد وأجد ريالين كنت أذهب بسرعةٍ وأشتري لهن الموز.. والله إنني لم أكن آكل منه مخافة أن ينتهي ولا يتبقى منه شيءٌ للبنات، بل إنني كنت آكل قشر الموز الذي يضعنه في الحاوية...

وانهارت ماما وبكت بكاء شديدًا، وهدأتها ووضعتها على كرسي مدولب واستأذنت الممرضات كي ندور قليلًا، ونذهب للشراء من (المقهى) في الدور الأرضي ولقد وافقن.. ودرنا كثيرًا ولم نعد للغرفة إلا عندما بدأ النعاس يُغشي عينيها..

٤٢

ووضعتها في السرير، ونامت كطفل، وبعد خمسة أيام أتت الطبيبة استشارية الباطنة، وقالت لماما:

-يا أمي أخبريني كيف فقدتِ الحركة في أطرافك الأربعة؟

عادت مامتي تبكي بألم وقالت:

-كنت أجلس أمام باب المسجد الأبيض الكبير في الشميسي، وكان الناس يعطونا مما رزقهم الله، وكان عمر ولدي حسين ثمانية عشر عامًا، وطلب مني نصف ريال كي يلعب بالدراجة مع صديقه، وأعطيته وطلبت منه أن يدور وألا يبتعد فأنا أخاف عليه أن يضربه أحد.. كنت أدافع عنه منذ طفولته باستماتة فيما لو حاول أي أحدٍ أن يضربه، وأخذ في الدوران في الشارع أمامي، كان يقوم بحركاتٍ لإضحاكي ولم ينتبه للسيارة خلفه، وركضت له كي أبعده عن طريق السيارة لكنها كانت مسرعةً وصدمت حسين أمامي..

داس كفر السيارة الأمامي حسين وانسلخ وجهه، وكانت عيناه مفتوحتين تنظران إليّ برعب، بسرعة الكفر الثاني داس رأس حسين وألصقه بالأرض ثم

توقف، ولدي كان في وضع السجود بينما وجهه ورقبته منصهرة على الأرض..

لا أصدق.. مستحيل، كان يرغب في أن يبهرني لكن كان الثمن حياته!..

صرخت ماما وكأنّ الحادث يحدث الآن أمامها تراه..

٤٣

صرخت صراخًا وحشيًا لأول مرة أسمعه، أتى على إثره الكثير من الممرضات والأطباء ..
وتم إعطاؤها منومًا ولكنها استمرت تبكي بألم، بكت كثيرًا واستمرت في البكاء وهي نائمة، وفي اليوم التالي أتت إخصائية اجتماعية وجلست مع ماما تحاول أن تسليها وتهدئها وتبتسم لها، لكن ماما قالت:
- مات حسين.. آه...دهسته سيارة، ليتني أنا، ليتني أنا.. تمنيت لو أن تلك السيارة دهستني أنا، وأقسم بالله في تلك اللحظة كنت أخنق نفسي حتى أموت.. لقد مت عندما دهسته السيارة، كان يريد إضحاكي.. آه.. حسين .. حسين، حسين ياحسرة قلبي على حسين، انتهت حياتي بنهاية حسين!.
قالت الإخصائية: اذكري الله، ربي يغفر له.
أكملت ماما:
.....
-عندما صدمته السيارة انشق قلبي وصرخت وصرخت أريد أن أمسك ولدي، ولكن النساء يتكاثرن ويمنعنني من الاقتراب منه، كنت أصرخ صراخًا مبحوحًا..

صراخًا متشققًا، أنفلت منهن، واقتربت من ابني المشوه وهو على الأرض والناس تصرخ؛ لكنني لم أعد أصرخ..

٤٤

توقفت عن كل شيء، أنا أضيع، لم أعد موجودة، أسير في طريقٍ موازٍ ليس على الأرض، ذهبت.. ربما مت، اختفى العالم من حولي أو أنا اختفيت...

لا أعلم لماذا مامتي لا تتوقف عن الكلام عن هذا الماضي الأليم حتى عندما ذهبت الإخصائية؟!. وفي الصباح لم تتكلم عنه، حتى عندما تحدثت إليها الممرضة، كانت حزينةً ولم تتناول طعامها رغم محاولاتي، ذهبت إلى عملي وعدت إليها في الثانية ظهرًا وكانت البنات معي، لكنها لا زالت لا تتناول الطعام، طفلتي الصغيرة أحضرت بعضًا من الحلوى من المدرسة وطلبت من مامتي تناولها معها، وتناولَتها، وأشرت للطفلة أن تحضر صينية الطعام، وأكلت مامتي قليلًا وابتسمت للبنات، ومن ثمّ رأيت ابنتي الكبرى تنام بجوار الجدة فقد كنّ آتياتٍ من المدارس، ونمن على الكراسي المتفرقة في الغرفة، بعد نصف ساعة قالت مامتي:

- أرغب في النزول إلى الأسفل.

استأذنت من الممرضات ووضعتها على الكرسي المدولب ونزلت معها إلى الدور الأرضي في المدينة الطبية..

٤٥

كانت تعشق رؤية النافورة التي تقع في الصالة الكبرى في المدينة الطبية، بل إنها تظل ساعات وهي أمام تلك النافورة، وقفنا قليلًا أمام النافورة وكانت تبتسم، ثم طلبت أن نذهب إلى المقهى القريب من النافورة، وطلبت مني أن أخلع تلك القبعة الصوفية التي تضعها على رأسها، ذهلتُ حيث كان يوجد مائة ريال!.. ضحكت وقلت:

- ما هذا المخبأ يا ماما؟

قالت: إنها للبنات، هذا مخبأ ابنتي (تغريد) فهي تضع كل شيء في هذا المخبأ ..

طلبت مامتي مني أن أشتري عصيرًا للبنات وكيك وللخادمة ولي أيضًا، واشتريت والباقي وضعته في تلك القبعة الصوفية على رأسها..

ورأيت نظرةً الرضا على وجهها، شكرتها وقبلتها ولكنها قالت:

- قليلٌ من كثيرٍ يا ابنتي

عدنا إلى الغرفة وقامت بتوزيع ما اشترته عليهن وهي تبتسم وهنّ يقبلنها،

استذكرت البنات دروسهن وعدن إلى المنزل وبقيت

أنا معها وفي الرابعة

فجرًا عندما استيقظتُ وجدتها لم تنم وقد أجلست

الخادمة السرير كانت تبتسم

وقالت ماما:

- فرحتُ أنّ البنات أكلوا قبل أن يذهبوا.

قلت: من خيرك يا ماما

ضحكت وهي تقول:

- لكنها قروشكم أنتم يا ابنتي!.

٤٦

ضممتها على صدري وأنا أقول: نامي يا ماما، نامي أنت أجمل ما حدث لي طوال حياتي.. نامي.

وبدأت تغني بصوتٍ باك وتقول:

«نام يا وليدي نام.. نام نومَة هنية، نومة الغزلان في البرية»

ضحكت أنا ولكنها كانت تبكي..

قالت: كنتُ أغنيها لحسين حتى ينام، يا ابنتي كل شيءٍ مر عليّ كان عذابًا، لكن عذاب حسين أقوى شيء.

وبكت بصوت عالٍ، وجلستُ إلى جوارها على سريرها، كانت تضع رأسها على صدري كطفل ثم قالت:

- تدرين أنه مات؟!

قلت: أدري يا ماما.

قالت: ولدي الجميل مات.. كان يحبني ولا ينام حتى يراني نائمة، كان إذا جاب خبز التميس يصلنا وقد أكل نصفه، ويخاف من البنات ولكنني ما أخلي أحدًا يضربه، ولدي حبيبي..

واستمرت في بكاءٍ أليم حتى سرقها النوم، وضعت عليها الغطاء ووضعت رأسها فوق وسادتها لتنام في سريرها، وذهبتُ إلى عملي ولكنني استأذنت فقد أقلقني بكاؤها.

هذا اليوم كان عاديًا لكن ماما لم تتحدث أبدًا وكأنها استهلكت كل أحاديث الدنيا ..

٤٧

ولم أسمح للبنات بالمجيء في هذا اليوم فإن ماما متوترةٌ، وفي المساء جلست إلى جوارها على سريرها حتى نامت، كانت طفلةً حقيقية، ونمت أنا على الكنبة كعادتي في كل مساء، وفي الثانية صباحًا أسمع نشيجها المكتوم..

وقفت وقلت: ماما فيكِ شيء؟

قالت: فيني حسين

....

وبدأت تتحدث..

-وجدت نفسي مربوطةً على سرير، وعرفت أن زمن عبوديتي رجع، ترى من سرقني هذه المرة؟! ولكنني أرى وجه ممرضة أمامي تنظر إليّ وأحاول أن أقول (حسين) ولا أستطيع، ليتهم يستدعونه لي، لن ينام قبل أن يراني، انتظرته ولكنه لا يأتي، وشيء ما يسحبني إلى الفراغ، وأقسم ألف مرة أنني لن أغضب حسين ولن أطلب منه ألا يلعب بالدنينا (عجلة دراجة مفرغة من البلاستك فقط الحديد) داخل المنزل، والله إنني لن أغضبه مهما فعل فقط أريده أن يأتي، انتظره لكنه لا يأتي، وأعود إلى السباحة داخل

فراغ جمجمتي، وأتى أطباء وممرضات وأخذوا يوخزون يدي وقدمي بالإبر..

٤٨

ويسألونني: هل أشعر بشيء؟ ..
لكنني أقول : نادوا حسين ..حسين أين أنت؟ خلوه يجي أين هو؟
ولكنهم وكأنهم لا يسمعون ما أقول، يذهبون.. وأُحاول الوقوف
لكنني مربوطة في السرير لا أستطبع تحريك يدي وقدمي؛ بل لا أستطيع أن أجلس..
وأصرخ:
- فكوني بأروح أجيب ولدي، فكوني ليش تربطونني؟
وأرى محاليل مرتبطة بيدي اليمني، أحاول أزيلها لكنني مربوطة لا أتحرك
- بأروح أشوف ولدي
وجوني الكثير من الممرضات ويقولون: اهدئي
- كيف أهدأ .. كيف أهدأ؟!.. كيف وولدي لم يأتِ؟ أريد أن أراه، أين هو؟ إنه لا يجيب مهما صرخت باسمه، هو لم يتناول طعامه أعرف، أرجوكم نادوا ولدي .. لا بد أنه جائع فهو دائمًا ينسى الطعام.
وعندما تأتيني بناتي فأنا أصرخ:
- جيبوا أخوكم .. جيبوه لي.
لكن لا مجيب..

٤٩

وأصرخ: فكوني كيف تربوطني بهذا الشكل؟
وكأنني ألتصق بالأرض، وتذهب البنات، وفي اليوم التالي أتاني طبيب مصري..

قال لي:

- يا حاجة أنتِ مصابة بشلل رباعي نتيجة صدمة قوية جدًا، لكن من الممكن مع العلاج الطبيعي والغذاء تستعيدين قليلًا من الحركة..

لا أصغي لما يقول.. بل لا أدرك ما يقول..

وأقول: أنا أرغب في أن أرى حسين.

قال: ما أعرف والله.

وفي المساء أتت بناتي وأتى معهن (أبوسالم) و(سالم)، وأخبرني أبو سالم أن حسين مات، دهسته السيارة المسرعة..

- كنتِ هناك يا أم حسين .. ألا تذكرين؟!

وبكى بمرارة ..وقال:

- كنت أمًّا عظيمة يا أم حسين حافظتِ عليه لكن الحافظ الله..

لا أصدق وأخذت أئن، لم أعد أستطيع البكاء ثم تنتابني نوبات صراخٍ حاد، أبكي وأصرخ وأعود الى الأنين،

حزني طاغٍ وأدعو ربي أن يأخذني، يأخذني مع حسين، واستمر العذاب.. وربما كنت أنا العذاب الحقيقي..

وأصرخ: يا حسين يا حسين

لكنه لا يأتي.. لا يأتي..

٥٠

لا يسمع .. لا يعود..
خرجت من المستشفى مشلولة الأطراف الأربعة، وتمر أيام الشقاء الحقيقي...
في البداية كانت البنات تهتم لي وينظفنني، ويضعن لي الطعام في فمي والماء والأدوية، ولكن وبعد فترة طويلة أصبحن يتغيبن عن البيت ويذهبن إلى بنات عمومتهن، وتزوجت ابنتي الكبرى ولم أحضر زواجها، كانت أول فرحتي، عندما عادوا من العرس سألتهم:
- كيف العرس
قالوا: زين..
فقط هذه الكلمة
قلت بضعف: ليش ما أخذتوني معكم؟
قالت لي ابنتي الوسطى:
- وين نشيلك معنا؟ مريضة ومشلولة وكل شوي تنادي حسين .. حسين مات وشبع موت، قلنا أحسن تقعدي في البيت أنا أخجل من الناس إذا شافوك أو شموا رائحتك!.
قلت بذل العبودية القديم: ما سألوا الناس عني؟
قالت: سألوا قلنا أنك تعبانة لا ترغبي في المجيء.

تمنيت أنني رأيت ابنتي في ليلة عرسها لكن لا حظ لي، لا حظ لي..

بكت مامتي كثيرًا جدًا، هذه الذكريات كانت تنكأ جراحها، نامت نوم يتخلله الكثير من تنهداتٍ أليمة..

٥١

استكملت ماما:

- في يوم قررت أن أتحرك وأخذت أزحف قليلًا قليلًا حتى وصلت الحمام، ولكنني لم أتمكن من تنظيف نفسي، ولا زالت كلمات ابنتي تدور في تجويفي..

«رائحتك الكريهة»..

وبقيت بجوار الحمام، لم أستطع العودة إلى تلك الغرفة التي وضعوني فيها، وعندما حضروا ارتعبت جدًا، خفت منهم..

قالت ابنتي الوسطى: كيف وصلت إلى هنا؟ يعني تستطيعين الذهاب إلى الحمام؟!.

وأحضروا لي شرشفًا صغيرًا وقالوا:

- هنا أفضل لك، وحاولي تروحين بنفسك للحمام نحن مشغولات وقد ننسى!..

ويشهد الله أني حاولت كثيرًا جدًا ولم أستطع.. إنّ عذابي لا ينتهي، جسمي يتسلخ وأراه ينزف أمامي لكن لا حيلة لي، وبدأت مرحلة الاستجداء فقد كنت أرغب في أن أشرب قليلًا من الماء، لا يهم الجوع .. العطش هو المؤلم .. لكنهن مشغولات؛ فهن يذهبن للبيع في السوق ويتأخرن، وعندما يأتين يكن مرهقاتٍ وربما كن ينسين وجودي..

لكن عندما يسمعن أنّ هناك صدقةً في أي مكان فجميعهن يحملنني ليعطيهنّ المحسن الكريم بعض المال، لكنهن لم يشترين لي أدوية ولم يعطينني الماء..

كنّ ينسينني كثيرًا ولقد كنت طوال حياتي ذلك الإنسان المنسي..

لم أستطع الذهاب إلى عملي، بل بقيت إلى جوارها، خفت عليها

٥٢

واستدعيت الطبيبة التي قالت لي:

- دعيها تقول كل ما أرادت فهي تعبر عن حزنها الشديد..

....

وفي المساء أكملت ماما قصتها:

- وتزوجت ابنتي الثانية ولم أرها في ليلة عرسها كما حدث مع البنت الكبرى؛ إلا أنني هذه المرة لم أسأل، وكأنني لست موجودةً فأنا فقط أنادي حسين الذي لا يعود، وبقيت لا أعلم إن كنا صباحًا أو مساءً، وطُلقت ابنتي الكبرى وأتت لتعيش معنا، وكان لديها بنتٌ صغيرة وولدٌ صغير .. كانا جميلين، كانا في البداية يخافان مني .. شكلي.. شعري الأبيض ورائحتي السيئة، ورويدًا رويدًا اعتادا وجودي بجوار الحمام على شرشف، ربما اعتادا وجود هذا الشيء الذي بجوار الحمام.. وبقيت على هذه الحالة، أفرح لو وُجد أحد.. أي أحد سيوزع صدقة، فقد كنّ يلبسنني ويقمن بتنظيفي، بل ويعطينني الماء، كانت ابنة ابنتي تجلس إلى جواري بجوار الحمام وتتحدث معي كثيرًا، كانت تعطيني الماء وقليلًا مما تأكله..

كاكاو، حلاوة.. أو أي شيء، وتمر أيام وأنا على ظهري لا أتحرك، حتى أتى ذلك المساء وكنتم توزعون في المركز ورأيتكِ..

٥٣

عندما عدنا إلى منزلنا عادوا إلى نسياني مرةً أخرى.. عاد العطش والجوع.. أخبرنني في اليوم الثالث لزيارتنا للمركز أنّ هناك من سيعطيهم المال وهو يقف بجوار المسجد، وأنهن سيعتنين بي..

وفرحت وانتظرتهن ولكنهن لم يأتين، أنتِ فقط أتيتِ.. ولقد كان يوم حظي أن أتيتِ أنتِ..

وفي نهاية الاسبوع يُطلب منا مغادرة المستشفى إلى مستوصف المواساة في مخرج ١٤، طبعًا كان المستوصف مختلفًا وبدأت مامتي تتعب وحالتها تسوء.. وبدأت أخاف.. وفي اليوم الثاني وأنا أمسك يدها نظرت طويلًا إلى وجهي، وقالت:

- الله يرضى عليك ..الله يدخلك الجنة.. ادعي لي أشوف حسين.. حسين، يا حسرة قلبي على حسين..

وفجأة قالت:

- انتبهي على ابنتي الصغيرة (تغريد).

قلت: لا، أنتِ التي ستهتمين بها.

لكنها لا تصغي إليّ بل تتكلم وكأنها قد لا تجد الوقت كي تخبرني بما تريد

كررت: انتبهي على البنات، بناتي (منى) و(سارة) و(تغريد)؛ ولا تنسين بناتي انتبهي لهن، جاهلات تكفين يا بنتي.. ثم

٥٤

رددت: الله الله، يارب ودني عند حسين.
وتغيب عن الوعي.. ويعـــود وعيها ثم يغيب... وبعد يوميـــن غابت عيناهـــا وفقدت وعيهـــا وعرفت أنها تموت...
وبكيت بقوة.. واتصلت على والدي، وأتى مسرعًا واستمر يقرأ بعض الآيات وهي تنصت وتحاول أن تبتسم ولكنها متألمة، وتحدثت مع والدي واعتذرت أنها لم تنتبه لوجوده.. ودعت له كثيرًا، وطلبت مني أن أسكب له القهوة وقالت:
- في الدرج بعض التمر..
ثم قالت له:
- ادع لي، بطني يوجعني ..
قال: اسأل الله أن يشفيكِ شفاءً لا يغادره سقمًا
قالت: اطلب من الله أن يغفر لي.. اطلب من الله أن يوديني عند حسين، عشت عذابًا غريبًا منذ أن خُلقت.
أذهلني أن رأيت دمعةً ساخنة تنسكب من عيني والدي، بكيت وقبّلته..
قال: ذل العبودية وذل العقوق.. كل واحدٍ أشد من الآخر.. أسأل الله أن يجعل كل ما جاكِ تكفير..

قالت ماما حســـناء: أخبروا البنات، انشـــغلوا أكيد لذلك ما جوني..

قلت لها: أنتِ التي ستخبرينهن يا ماما.

٥٥

ورأيت والدي يشيح بوجهه بألم، ثم استأذن وذهب بعد أن قبّل رأسها.. أتى الطبيب وأعطاها مسكنًا ونامت... وفي الفجر سمعتها تناديني، وصحوت..

قالت: سامحوني كلكم ..

بكيت، وقالت: لا تبكي يا بنتي، سأرى (حسين) و(فيصل)، قولي لبناتي ربي يسامحهن، ليتني شفتهن.. لكن ربي عطاني أنتِ.

وأتى الطبيب وطاقم التمريض، واستسلمت مامتي لموتٍ كأنه النوم ..

بكيتُ وصرخت ولم أتوقف عن البكاء لمدة أسبوع.. وأخذت ألوم نفسي على أنني لم أعرفها من قبل، وليتني خدمتها أكثر مما فعلت.. رحلت هي عن هذه الدنيا وكانت تبتسم كعادتها، ولم تغب ابتسامتها الطفولية عن ذاكرتي حتى الآن..

انتهت

ماذا قالوا عن الرواية

(حسناء في كنف سيدة)

بعد أن أُغلقت كل الأبواب في وجهها وتخلى عنها الضنى والناس، قادتها الأقدار إلى بلاط الإنسانة المسلمة الكريمة د. (ظافرة القحطاني)، وصلت ماما (حسناء) بعد عناءٍ ومرض وتشرّدٍ وجوع وخوف وحرمان، وهبطت تحفها الرحمة والعطف والعناية والاهتمام المجرّدة من الرياء والخالصة لله أولًا؛ وحفظ كرامة إنسانة تقطعت بها السبل ثانيًا، وكم وكم وكم..

يعجز كبار التجار أو الأثرياء أو من العامة عن تبنِّي هذه الحالة الإنسانية لأسبابٍ عدة؛ ولكن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، اتصلت وتواصلت وانتقلت إلى موقعها حملتها واحتضنتها النبيلة (ظافرة)، نعمَ احتضان، وتناديها (ماما حسناء)، ووضعتها في مكان الأم العالي لكي لاتغفل عن خدمتها ولو لساعة؛ لم تنظر لا للونها أو عرقٍ أوقبيلةٍ، نظرت لها كإنسانةٍ لها كرامةٌ عند الله، ولو كانت المساحة تسمح حينها أحتاج إلى مجلداتٍ لكي أفصِّل وأفسِّر وأسرد وأستشهد وأصوِّر قصة (ماما حسناء) رحمها الله مع العطوف (ظافرة) على مدى ست سنوات، وقد طلبت أنا من الأخت د (ظافرة) -وفقها الله- تحويل القصة الواقعية

الحقيقية إلى فيلم أو مسلسل وهو في طور الإعداد..

المستشار أحمد بن قزان عسيري.

شركة (عدسة الشرق للإنتاج الإعلامي الرياض).

(من العبودية إلى قلب ظافرة)

الحمدلله الذي أنعم علينا بفضله وكرمه ورحمته.. وجعَلنا مسلمين في وطنٍ يكفل لنا بالإسلام حقوق حرِّيتنا؛ فكان الإنسان أولًا.. كما أنّ ديننا الإسلامي بنى في نفوسنا نعمة التكافل الاجتماعي، وفعل الخير؛ ولعلّ هذه القصة الكبيرة بأحداثها تكون إشراقةً للخير؛ ليكون فيها تثقيفٌ، وعِبرة.. ومنها نقف على خبث جهل ذلك الزمن المظلم، والذي جاء الموحد الملك (عبدالعزيز) -رحمه الله وأبناءه الأبرار- لإزالة آثار وبقايا الجاهلية، وإشعال نور الحق والعلم والعدل والحرية.. وهذه قصةٌ مستوحاةٌ من الواقع الذي كانت المؤلفة بطلته.. وكانت تفاصيل أحداثها وشخصياتها حقيقية، فانسجمت الأفكار وتناسقت العناصر: شخصياتٌ، وأحداثٌ، وخلفياتٌ سواءً كانت زمانيةً أو مكانية، جمعها سردٌ بليغٌ ومُتقن؛ فخرج المشهد في قالبٍ إبداعي جميل.. وأحيي الكاتبةَ المتألقة على شجاعتها الأدبية التي بها قدمت لنا هذا النصّ في قالبٍ قصصي درامي جميل، وبجودةٍ عالية تجلت في أحداثها الإنسانية الخارقة للعادة، والرحمة، والحب، والعطف، والحنان والتضحية، والإيثار التي تتمتع بها الإنسانة العظيمة سعادة الدكتورة (ظافرة

القحطاني)، كما أنها أشركت العقل والقلب والعاطفة في سردها للأحداث، الذي أعطى للنصِّ توازنًا وتناغمًا تمنح المتذوق وكذلك الناقد تشويقًا يبحث به عن أسرار الجمال والإبداع في كل منعطفات هذه القصة المؤلمة..

الدكتورة ظافرة أنعم الله عليها بـ (حسناء)، ومهما شكرنا لن يوازي شكرنا ما صنعت، ولن يفيها ما تستحق لأنها من أعظم النساء؛ بل إنني أعدها مضربًا للمثل في الإنسانية على مستوى الوطن.. وبقدر ما استمتعت بجمال الحبكة والسرد؛ إلا أنني تألمت كثيرًا، ولا أخفيكم أنني شاركت ظافرة وجميلة -رحمها الله- البكاءَ في مشاهد متعددةٍ أدمت قلبي ..

فايز العرابي الحارثي.

أَمَة الله حسناء

مساءٌ استثنائي كان أشبه بطوفانٍ أحدثَ تغييرًا هائلاً في حياتها، واتصالٌ هاتفيٌّ أيقظ الفزع بداخلها، حين كانت هي المجداف الذي أوصل قارب البطلة الناجية إلى ضفّة الأمان، حاملةً معها الحقيقة المؤلمة مخلِّدةً لحظة الرفض المؤلمة.

(أمة الله حسناء)

أكثر القراءاتِ تشويقًا تكون لكتب الرواية والقصص، وترتفع نسبة التشويق والإثارة حينما ترتكز الرواية على قصةٍ واقعية وأحداثها حقيقية، وهذه إحدى عوامل الجذب في هذا الكتاب (ماما حسناء)، وهنا استطاعت الكاتبة والروائية المبدعة د. (ظافرة القحطاني) من جعل القارئ مدهوشًا.. متأملًا.. متشوقًا.. تعتريه ملامح الحزن تارةً وتعلو محيّاه الابتسامة تارة.. وهو يقرأ كل حرفٍ وبشغفٍ لأنه أمام قلمٍ متمكِّنٍ من أدواته، وفكرٍ يحلق به بعيدًا في فضاءاتٍ الإبداع وحبكة درامية تثير المشاعر والوجدان، مستمدةً من قصةٍ إنسانية عشنا تفاصيلها المؤلمة لتلك الروح

الملهِمة، رواية تحكي قصةً واقعية.. ومن قساوة واقعها المؤلم تحدثني نفسي بأنها من نسج الخيال (علّ النفس لا تريد تصديقها)..

وتذكرتُ أننا في بعض أحلامنا المزعجة وحين نعيش كابوسًا مروِّعًا ندعوا الإله ونحمده حين نصحو من ذلك الكابوس؛ بينما بطلة القصة ماما (حسناء) كانت حياتها وصحوتها كابوسًا وشقاءً.. ولا ترتاح إلا حينما تغفو وتحلُم.

استوقفتني عدة مشاهدَ من الرواية:

* عندما يسود الجهل والفقر والجوع يغيب المنطق وتتلاشى معه ملامح الإنسانية، وتتجلى هذه الصورة حين ضاعت الطفلة (حسناء)، ومن ثمّ تم بيعها.

* حينما يستمر الألم تجف الدموع ويتحول البكاء إلى أنينٍ والصراخ إلى تمتماتٍ تمزِّق النفس من الداخل.

* حينما تعتاد الروح كل الجروح تتقبل واقعها المؤلم، وتتجلى هذه الصورة حينما كانت تُسأل الطفلة (حسناء) عن اسمها فتُجِيب.. (العبدة).

* تحمّلت بطلة الرواية (حسناء) آلام الرقِّ والعبودية وكانّ ألمُ ذوي القربى من بناتها أشدّ وقعًا وإيلامًا.

* قالوا (صنائعُ المعروفِ تَقي مصارعَ السُّوء)، والكاتبة عندما تحدت الظروف والعادات والتقاليد، وأصرّت على أن تأخذ العجوز جميلة لتأويها في بيتها أزال الله عن د.(ظافرة) مرض السكري الذي كان يلازمها منذ الطفولة وتتخلص من الأنسولين.

* (مَن أحياهَا كأنّما أحيَا الناسَ أجمَعين)
حرّرتها من مذلة الحاجة والسؤال، وحرر الله فكرَها وفكرنا بلذّة العطاء.

* أيقنتُ من تفاصيل هذهِ الحكاية أنّ كلّ شخصٍ منّا مسخّرٌ لنجاةِ شخصٍ آخر في مكانٍ ما على هذهِ الأَرض.

* الجدير بالذكر أنه بعهد المؤسس الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله، أصدر قرار إلغاء العبودية والرق في عام ١٣٥٣للهجرة ، وهناك روايات كثيرة تحدثت عن العبودية، ويتم استعراض أبرز الروايات والأفلام في الذكرى السنوية

السنوية لإلغاء العبودية في تاريخ ٢ ديسمبر من كل عام -اليوم الدولي لإلغاء الرق- وهو اليوم الذي يذكر باتفاقية الأمم المتحدة بشأن منع الإتجار بالأشخاص واستغلال الغير في البغاء رقم ٣١٧ IV والتي صدرت في ٢ ديسمبر ١٩٤٩

ونستعرض بعضًا منها:

رواية (محبوبة)

رواية (اثنا عشر عامًا من العبودية)

رواية (السكك الحديدية السرية)

رواية (كتاب الزنوج)

رواية (كوخ العم توم)

وهناك رواية تناولت الموضوع من زاويةٍ أخرى مثل (مجتمع العبيد:الحياة في مَزارع الجنوب فيما قبل الحرب الأهلية) بالإنجليزية:

The Slave Community Plantation Life in the Antebellum South، هو كتاب ألفه المؤرخ الأمريكي (جون ويزلي بلاسينجيم).

نُشر الكتاب في عام ١٩٧٢؛ ويعد من أوائل الدراسات التاريخية عن العبودية في الولايات المتحدة التي تُكتب من وجهة نظر المسُتَعبَد.

وكذلك الحال تم تقديم روايات في عالمنا العربي

تطرقت للعبودية سواءً في التاريخ القريب أو على المدى البعيد، ومن هذه ثلاث روايات رواية «كتيبة سوداء» للمصري محمد المنسي قنديل، و«شوق الدراويش» للسوداني لحمّور زيادة (السودان): و«ثمن الملح» للبحريني خالد البسام.

ولم تغفل السينما العالمية هذه القضية وطرحتها على مدار السنوات الماضية في العديد من الأفلام التي تناولت العنصرية والاسترقاق، وعلى سبيل المثال لا الحصر:

(الكتاب الأخضر)

(بلاك كلانسمان)

(١٢ سنة من العبودية)

(جانجو الحر)

(لينكولن)

(سبارتاكوس)

(أميستاد)

(تكريم الرجال)

وجميعها كانت تتناول العبودية من منظور تفوّقٍ عرقي يتمثل بلون البشرة، ولم يتطرقوا لبقية الجوانب كما فعلت د. (ظافرة القحطاني) حين غاصت في أعماق العجوز (حسناء) الشخصية والنفسية

والروحية، تخيلوا إنسانةً لم ترَ البحر في حياتها إلا مع الكاتبة، ولم تزر بيت الله الحرام وترى الكعبة إلا مع الكاتبة!.. لذلك عشتُ هذه القصة من خلال قلم الكاتبة وشعرت بأنّ شخصية (ماما حسناء) عاشت العبودية وقيدها إلى أن قيض الله لها ملكًا يحررها ويكسر قيد عبوديتها..

«وكم حُرٍ لا يزالُ مكبّلًا بقيد عبودية الجهل!»..

الإعلامي

حسن بن صعب

بداية النهاية

(ماما حسناء)
عندما يجتمع الألم
والفقر الحزن والعبودية، الظلم والاستبداد
طفلةٌ خادمة (عبدة) في زمن
العبودية بلا رحمةٍ ولاخوف.
وأمٌ انكسرت تحتً جبروت الأبناء ونكران المعروف .
آهِ وما أقسى تلك الظروف
وما أقسى نكران الوالدين ..
بداية النهاية....
ماما جميلة تعيش أيامها
الأخيرة ملكةً أنيقة على
كرسي متحرك، تبتسم كثيرًا
وتعود ذكرياتها الأليمة
ولكن مَن حولها اقنعوها
بأنّ الدنيا مازالت بخير، وأنّ هناك من يستحقون أن
تكون أمّا لهم.
أخذتني الدكتورة (ظافرة) لعالم وعوالم مؤلمة،
ولربما ابتسمتُ لضحكات ماما حسنًاء، ولعب الصغيرات
حولها، والقهوة وأحاديث السمر ...

بدرية آل عمر الغامدي.

«ماما جميلة»

للدكتورة ظافرة القحطاني
مـــن ظلام العبودية إلى نـــور الحرية وفصول كثر حتى وصلت لأيـــادٍ ندية منحتهـــا الحب والحنان ونقلتهـــا من الحرمان إلى العطاء ومن الشـــقاء إلى الســـعادة ومن العقوق إلى البر ومن الجهل إلى العلم ومن أقصـــى نجد إلى البيت الحـــرام ومن البر إلى شواطيء البحر ومن الألم إلى الابتسامة يااه عظيمة جـــداً تلك الرواية والأعظم قلب حاني وروح لطيفة ونيـــة بريئة وأيادي بيضاء صنعت الحياة كل الحياة لـ(حسناء) كانت تتجرع ســـكرات الموت ولم تمت بعد وماتت بعد أن نعمت ببر إنســـانة حباها الله نعمة العطاء ومحبة المساكين والفقراء .

** أما أنا وأنا اقرأ فلم اكن اقرأ بل كنت شاهد عيان على زمن الظلم والقسوة والجهل والشقاء لم يرى بعينيه ولكنه رأى من خلال (ماما حسناء) بقلم وخيال وإبداع وتصوير د. ظافرة رأى ذاك الزمن بتفاصيله الموجعة وأحداثه المؤلمة وكأنه يشاهد فلم مرئي يمر امام عينيه وذاك دليل الحبكة الروائية المتفردة

لدى الكاتبة فهنيئاً لكِ بقلمك وهنيئاً لنا (كل من يقرأ لك) بما تكتبين وبما تنسجين وبما تسطرين رغم انك تستمطرين الدموع من عيني كل قاريء يقرأ لك ان كانوا يقرأون كما اقرأ ويتأثرون كما اتأثر.

شكراً د. ظافرة القحطاني حين تحيين مشاعر الرحمة والشفقة واللطف فينا ونعود لانسانيتنا مع كل رواية تكتبها د. ظافرة القحطاني.

بقلم قاريء يعيش الدهشة ثم يشعر بأنه لا يزال إنسان لديه الكثير من الإنسانية ويمتلك الكثير من المشاعر النقية مع كل رواية يقرأها لظافرة القحطاني

الإنسان : جمعان اللحلحي

(الله يرحمك يا فيصل)

عندما يخبرونا بأن شـــمس الإنسانية قد أفلت ، وبأن الخير قد شـــاخ في قلوب البشر ، يبعث اللّه إلينا من يخبرنا بأن شـــمس الإنســـانية لا تغيب وبأن صنائع المعروف في أوج شـــبابها ، وأن الخير مازال يتكاثر ويولد من جديد كلما مات منه شيء .

قصة تجعلنـــا نصمت من بدايتها حتـــى نهايتها ولا نســـتطيع أن نتوقف في أي جـــزء منها حتى لا نتيه ونفقد شـــيء من جمالها ، قصـــة أنت بطلتها وتلك المكافحة هي جريحتها (ماما حســـناء) لا أشعر أنها أمهم أو أمك أو أمكم كلكم (ماما حسناء) هي أمي وأمنا جميعاً شعرنا ببعض قصتها وبكينا عليها فماذا لو كانت ما تزال حية فتخبرنا بباقي رحلة العبودية والظلم والنكران .

مسيرة حياة كلها وجعٌ ولكنك يا د. ظافرة صنعتي لها عمرا جميلاً فيما تبَقّـــى لها منه ، جعلتي خاتمة كتابها أمان وأمومة ورسمتي لها خاتمة تستحق أن تحصل عليها كرماً من اللّه تعالى لها ولك .

شـــكراً لك أيتها الســـيدة العظيمة وشكراً لأسرتك

الطيبة وعفى الله عن عقوق بناتها ، كتبت قصيدة خجلى أحببت أن اغنيها لنفسي أولاً كلما مر علي خذلان ، فأتذكر أني في نعيمٍ اذا قارنته بخذلان الحياة لماما جميلة وأهديها إليك محملة بكل شكر وعرفان على موقفك الإنساني النبيل .

الشاعرة دلال القحطاني

غيمة

قصة (ماما حسناء)

ستكون حديث العالم، لأننا نعيش مع قصةٍ واقعية حقيقية وليست من الخيال، وكانت بطلة القصة الإنسانة المسلمة العربية السعودية الدكتورة (ظافرة القحطاني)، التي عملت عملاً يعجز عنه الكبار بإنسانيتها وعطفها وحنانها، لم تفكر في كلام المجتمع أو الأسرة أو القبيلة؛ خصوصًا أننا نعيش في زمنٍ طغت فيه العنصرية المقيتة التي ما أنزل اللّٰه بها من سلطانٍ؛ لأن ماما (حسناء) كانت رقيقًا تُباع وتشترى، باختصارٍ الدكتورة (ظافرة) كسرت حاجز العنصرية المقيتة التي طغت على جميع أنحاء العالم.

الصحفي وعضو شركة عدسة الشرق للإنتاج (محمد المباركي).